ترجمة المؤلف – وتعريف بالكتاب

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي من آل مشرّف من آل وُهيب، الذين يعرفون في بلاد نجد باسم (الوهبة) التميمي، وقد كان ميلاده في العيينة سنة ١١١٥ هـ، وكان والده قاضيًا في العيينة حتى سنة ١١٣٩هـ، ثم انتقل والده بعد ذلك إلى بلدة مجاورة يقال لها حريملاء، وأما جده سليمان بن علي فهو من أعلام المذهب الحنبلي في بلاد نجد، فقد كان -رحمه الله- إمامًا مشهورًا كبيرًا تنقل عنه الاختيارات في كتب الحنابلة، فالشيخ -رحمه الله- سليل بيت علم ودين، فنشأ هذه النشأة الصالحة، وتربى في أحضان العلم والدين والتقى والصلاح، فحفظ القرآن ولّما يبلغ عشر سنين، ثم سمت به همّته فصار يطلب العلم في البلدات المجاورة لبلدته، حتى إذا استوعب ما حوله طمحت به همته، فأتى بلاد الحرمين، وقد كان في مكة حينذاك أحد العلماء المشار إليهم بالبنان وهو العلامة المحدث عبد الله بن سالم البصري فلعله تلقى عنه، وأما في المدينة فقد تلقى عن الشيخ محمد بن حياة السندي صاحب "**الحاشية على الصحيح**"، والتقى بالشيخ عبد الله بن إبراهيم الشمري، ثم عاد إلى بلدته وبحث عن مضمار جديد لطلب العلم فتوجه إلى البصرة، وهناك التقى بالشيخ محمد المجموعي وكان إمامًا وعالمًا فتلقى عنه، وفي البصرة رأى جهل الناس واعتكافهم حول القبور ودعاء غير الله، فأحدث له ذلك غضبة لدين الله وحمية وإنكاراً للمنكر، فتكالب عليه الجهال، حتى وأخرجوه من البصرة شريدًا طريدًا، حتى كاد أن يهلك لولا أن تداركه الله برحمته، فأخذه رجل واحتمله إلى بلده الزبير، وكان ينوي- رحمه الله- أن يواصل المسير إلى بلاد الشام لولا أنه ابتلي بسرقة نفقته، فما كان منه إلا أن عاد أدراجه إلى موطنه نجد، وعرج في طريقه على الإحساء، وكانت الإحساء، ولا تزال، من مواطن العلم، فلقي أحد علمائها المشهورين وهو الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي -رحمه الله-، كما التقى أيضًا بابن فيروز، وابن فيروز له حاشية معروفة في كتب الحنابلة، فأخذ عنهما ثم عاد بعد ذلك إلى والده، وكان والده قد انتقل إلى حريملاء، و لم يتمكن -رحمه الله- من الجهر بدعوته التي صمم عليها وهي دعوة التوحيد، إلا بعد وفاة والده، وذلك أن والده كان يشفق عليه ويخشى عليه من كيد المخالفين. ثم عاد بعد ذلك العيينة بعد أن ضُيّق عليه، فاستقبله أميرها ابن معمّر وشجعه وآزره فجهر بدعوته، فما كان من أمير الأحساء، ابن عريعر- إلا أن هدد أمير العيينة بقطع المِيرة عنه والمؤن إذا لم يخرج الشيخ، فاضطر إلى إخراجه، أو أن الشيخ -رحمه الله- خرج من تلقاء نفسه فتوجه إلى الدرعية حيث يقيم أحد طلابه يقال له: ابن سويلم فأوى إليه وهناك في الدرعية، -ولعل ذلك كان من غير ترتيب مسبق- سمع أميرها الإمام محمد بن سعود -رحمه الله- بمقدم

الشيخ فأخذ زمام المبادرة، وأتى إلى الشيخ في بيت ابن سويلم، وسمع منه، فانثلج له صدره وفرح به وأيده وقال : أنا معك على هذا الأمر، فبشره الشيخ بخيري الدنيا والآخرة، وكان ذلك فعلًا، فكانت هذه هي ولادة الدولة السعودية، بسبب هذا الاتفاق الذي جرى بين الإمامين محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- والإمام محمد بن سعود، و لم يزل الله تعالى ينصرهم وينقلهم من نصر إلى نصر حتى عمت أرجاء الجزيرة العربية، وطالت بلاد اليمن وعمان بل حتى بلغت مشارف الشام والعراق إلى أن حصل لها ما حصل من العدوان الخارجي، وقد عُمِّر الشيخ -رحمه الله- واشتغل بالدعوة والتأليف والفتيا والمراسلات، حتى وتوفي سنة١٢٠٦هـ.

وترك علمًا غزيرًا، ومصنفات نافعة. و لم يزل أبناؤه وأحفاده وتلامذته من بعده يحملون العلم إلى يومنا هذا. و لم تزل الدعوة السلفية الحديثة ممثلة في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تمدّ رِوَاقها، وتنشر أريجها في أرجاء الكرة الأرضية حتى صارت معلمًا على المنهج النقي السلفي الخالي من البدع، فكان كل طالب علم السلف يبحث عنها في مصنفات أئمة الدعوة، **وقد ترك الشيخ مؤلفات عدة منها:**

١) **"كتاب التوحيد"** ألفه في البصرة حينما رأى انصراف الناس إلى الجهل والبدع.

٢) **"الأصول الثلاثة"** أو **"ثلاثة الأصول"** الذي نحن بصدده.

٣) **"كشف الشبهات"**.

٤) **"كتاب الكبائر"**.

٥) **"كتاب آداب المشي إلى الصلاة"**، وهو كتاب في الفقه.

٦) ومنها مجموعة من المختصرات.

فكان الشيخ -رحمه الله- يقرب العلم باختصاره، فاختصر **"الإنصاف"** و**"الشرح الكبير"**، كما اختصر **"زاد المعاد"** و**"السيرة النبوية"** -رحمه الله -رحمة واسعة.

والكتاب الذي بين أيدينا متن مبارك يسمى أحيانًا: **"الأصول الثلاثة"**، ويسمى أحيانًا: **"ثلاثة الأصول"**، هذا متقارب.

والأصول: جمع أصل، والأصل هو: ما يبنى عليه غيره، وهذا الكتاب يشير إلى أصول ثلاثة وهي الأمور التي يُسأل عنها الإنسان في قبره (من ربك؟، ما دينك؟، من نبيك؟).

وقد امتاز هذا الكتاب على صغر حجمه بعدة مزايا منها:

أولًا: التأصيل والعناية بالدليل، فلا يكاد الشيخ يذكر مسألة حتى يتبعها بالدليل، ولا شك أن هذا علامة قوة.

ثانيًا: الوضوح والبيان، بخلاف كتب المتكلمين وتعقيداتهم اللفظية، فكثيرُ ممن يؤلف في العقائد يؤلف كلامًا يصعب حله وفكه لآحاد الناس، أما الشيخ -رحمه الله- فقد سلك طريقة القرآن والسنة في الوضوح، فجاء كلامه سهلًا يسيرًا يفهمه كل من قرأه.

ثالثًا: التقاسيم النافعة، والتقاسيم نوع من تقريب العلم لطلبته، فإن من أهل العلم من ينثر العلم نثرًا لا يتمكن سامعه من جمع أطراف هذا العلم، ولكن إذا أحسن عرضه وترتيبه كان هذا من أعظم الدواعي لفهمه.

رابعًا: اتخاذ طريقة السؤال والجواب، إذا قيل لك كذا فقل كذا، وهي طريقة قرآنية نبوية، لأنها تثير ذهن المتلقي، وتُذهب عنه البلادة والرتابة.

خامسًا: التلطف إلى القارئ والشفقة عليه والدعاء له، فما أكثر ما نجد في هذا الكتاب: رحمك الله، أرشدك الله، ولا شك أن مثل هذه الجمل تحبب القارئ لمؤلف الكتاب، ومضمونه و لم يزل أهل نجد يعتنون بهذا الكتاب، حتى قال الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله-: "وقد كان -رحمه الله- يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب- يلقن الطلبة والعامة هذه الأصول ليدرسوها ويحفظوها ولتستقر في قلوبهم لكونها قاعدة في العقيدة"، وها نحن نسير على ما سار عليه القوم ونبتدىء في سلم الاعتقاد بهذه الدرجة الشريفة .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

شرح البسملة – مراتب العلم

قال المؤلف –رحمه الله–: بسم الله الرحمـــٰن الرحيم: اعلمْ –رحمكَ اللهُ– أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائل:

استهل المصنف – رحمه الله –كتابه هذا بالبسملة – بسم الله الرحمن الرحيم–، **والبداءة بالبسملة دل على ثبوتها ومشروعيتها أدلة كثيرة منها:**

- ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:(كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللهِ أَقْطَعُ)[1]، وفي رواية: [أبتر]، و[أجذم]، وفي رواية: (لا يبدأ بالحمد لله)[2]. وفي رواية: ((لا يبدأ فيه بذكر الله))[3] وهذه الأحاديث لا تخلو من مقال ولكنها بمجموعها تحتمل ولهذا تلقتها الأمة بالقبول، فصاروا يبدؤون كتبهم بالبسملة.
- أنها هدي الأنبياء السابقين، قال الله عز وجل{ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [النمل: ٣٠]فقد كان أنبياء الله يبدؤون مكاتيبهم بالبسملة، وقد قال الله لنبيه: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].
- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبدأ بها مكاتبيه:

فعندما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل:(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم)[4]، ولما النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب صلح الحديبية أملى على الكاتب " بسم الله الرحمن الرحيم "، فقال مندوب قريش سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب" فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " فاكتب (بِاسْمِكَ اللهُمَّ)[5].

فالسنة أن يبتدئ الإنسان مكاتيبه بالبسملة، وأن يبتدئ خطبه بالحمد لله، فإذا خطبت فابدأ بالحمد له، وإذا كتبت فابدأ بالبسملة ولا بأس بالجمع بينهما.

(**بسم الله**) جار ومجرور، والجار والمجرور لا بد له عند النحاة من متعلق، قال العلماء: إن متعلَّـــق "بسم" فعل محذوف مؤخر مناسب للمقام، فنقدر هاهنا " بسم الله أكتب" فإذا أردت أن تَطْـــعم وقلت بسم الله فما التقدير؟ بسم الله آكل، وإذا أردت أن تدخل بيتك وقلت بسم الله، فالتقدير بسم الله أدخل.

---

(١) أخرجه الخطيب في الجامع (١٢١٠)، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٦/١) قال الألباني ضعيف جدا –انظر أرواء الغليل (٢٩/١).

(٢)سنن أبو داود (٤٨٤٠) ، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" (٤٩٤) وضعفه الألباني انظر ضعيف الجامع الصغير (٤٢١٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (٨٧١٢). والحديث ضعيف لا يصح – انظر تحقيق المسند لشعيب الأرنؤوط –للتوسع انظر أرواء الغليل (١-٢٩-٣٣).

(٤) صحيح البخاري(٧)، صحيح مسلم (١٧٧٣).

(٥) صحيح البخاري (٢٧٣١)،

فها هنا يكون التقدير بسم الله أكتب، أو بسم الله أصنف، بسم الله أؤلف، وبالنسبة للقارئ بسم الله أقرأ.

واسم الله عز وجل اسم مبـــارك، ما كان في شيء إلا حلت فيه البركة، فإذا استعمله الإنسان مع الطعام بورك له في زاده، وطرد عنه الشيطان، وإذا استعمله الإنسان عند دخوله لبيته؛ فإن ذلك يطرد الشيطان ويمنعه من المبيت، وإذا استعمله الإنسان إذا أتى أهله حيل بين الشيطان وبين ما يقسم بينه وبين أهله من ذرية، فينبغي للمؤمن ألا يغيب عن باله، ولهذا قال الله عز وجل {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن: ٧٨].

والاسم عند النحاة: هو ما عيّن مسماه، فالله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، كما قال في غير موضع {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الأعراف: ١٨٠] خلافًا للجهمية الذين أنكروا أن يكون لله أسماء، فالله تعالى له أسماء حسنى وله صفات عُلى، فنثبت ما أثبت الرب لنفسه، ومن ذلك (الاسم)، وأما لفظ الجلالة "الله" فإنه أفضل الأسماء الحسنى على الإطلاق، وقيل: أنه هو الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، ولهذا نجد أن الأسماء الحسنى تحال إليه، كما في قوله {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الحشر: ٢٢، ٢٣]، فمرجع الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم الشريف وهو الله، ولفظ (**الله**) مشتق وليس جامدًا بل هو مشتق من : أَلَهَ يألهُ أُلُوهةً، والمراد بالألوهية: انجذاب القلب، للمعبود محبة وتعظيمًا، فلهذا كان هذا الاسم الشريف جامعًا للأسماء الحسنى، لأن القلوب لا تجتمع إلا على من كانت له صفات الكمال ونعوت الجلال(١).

أما (**الرحمن و الرحيم**) فهما اسمان شريفان كريمان من أسماء الله الحسنى، ومعناهما متقارب إذ أن كلًا منهما يدل على اتصاف الله تعالى عز وجل بصفة الرحمة، ولا ريب أن ربنا رحمن ورحيم، وأن من صفاته العلى صفة الرحمة، ورحمة ربنا عز وجل رحمة تليق به ليست كرحمة المخلوقين فيها ضعف ورقة، بل هي رحمة لائقة بجلاله وعظمته، رحمة حقيقية نثبتها لربنا ونرجو ثوابها.

۞الفرق بين الرحمن والرحيم:

الفرق الأول: قال بعض أهل العلم: أن الرحمن يدل على اتصاف الله تعالى بصفة الرحمة اتصافًا ذاتيًا، أما الرحيم يدل على اتصاف الله بصفة الرحمة اتصافًا فعليًا.

الفرق الثاني: أن الرحمن يدل على الرحمة العامة المتعلقه بعموم المخلوقين، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة المتعلقة بالمؤمنين خاصة ، فالرحمن يدل على الرحمة الواسعة، التي دل عليها قوله تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦] ، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة التي تختص بالمؤمنين، قال عز وجل {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]

(١) انظر: جامع المسائل لشيخ الإسلام (٤/٤١٤)، بدائع الفوائد (٢/٣٢).

الفرق الثالث: أن الرحمن اسم لا يطلق إلا على الله عز وجل ، لأنها تدل على الإطلاق والكمال المطلق، بينما اسم الرحيم يجوز أن يسمى به المخلوق، ،قال تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣].

قال: (**اعلمْ –رحمكَ اللهُ–**): ابتدأ المصنف–رحمه الله– بهذا اللفظ –اعلم–، وهو صيغة أمر تحمل المخاطب على الانتباه ، وقد جرى الشيخ على نسق القرآن، فإن الله تعالى قال في كتابه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: ١٩]. **ومراتب الإدراك ستة**:

أولًا: العـــلم، وتعريف العلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا. كقولك: وقعت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

ثانيًا: الجهل البسيط هو عدم الإدراك بالكلية. كقولك: لأعلم متى وقعت غزوة بدر.

ثالثًا: الجهل المركب: وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه. كقولك: وقعت غزوة بدر في السنة الثالثة من الهجرة.

رابعًا: الظن: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح. كظنك أن غزوة بدر وقعت في السنة الثانية من الهجرة مع نوع تردد.

خامسًا: الشـــك: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مساوي. كترددك في وقوعها في الأجلين على حدٍ سواء.

سادسًا: الوهـــم: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد راجـــح. كظنك أن غزوة بدر وقعت في السنة الثالثة من الهجرة مع نوع تردد.

۞ويقسمون العلم أيضًا إلى قسمين:

القسم الأول: علم ضروري.

القسم الثاني: علم نظـــــري.

فالعلم الضروري: هو الذي يكون إدراك العلم فيه بمقتضى الضرورة؛ إما ضرورة عقلية أو حسية. فمن الضرورة الحسية أن تعلم أن السماء فوقنا، والأرض تحتنا، والعقلية أن تعلم أن ١+١=٢، لأنها تدرك بالتفكير والحساب، فهذا يسمى عند العلماء بالضرورة العقلية، ومن العلم الضروري ما ثبت بالتواتر ، كالقرآن العظيم، لأن كتاب الله عز وجل محفوظ منقول إلينا نقلًا متواترًا لا خلاف فيه، ولا يخرم منه حرف واحد، ومنه الأحاديث المتواترة التي رواها جمع كثير يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة عن مثلهم وأسندوه إلى شيء محسوس، فالأحاديث المتواترة تفيد العلم الضروري القطعي.

وأما العلم النظري فالمراد به: ما يحتاج إلى نظر واستدلال، ولهذا يحصل فيها خلاف بين أهل العلم، فتجد مثلًا أن العلماء يختلفون في بعض المسائل، كنواقض الوضوء مثل لحم الجزور ومس الذكر فيكون العلم بأحد الأمرين علمًا نظريًا لا علمًا ضروريًا.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أربعة مسائل مع الدليل

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال: (اعلمْ –رحمكَ اللهُ–): وهذا دعـــــاء للمخاطب بحصول الرحمة له من عند الله تعالى عز وجل.

قال: (أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائل): أفاد الشيخ أن الوارد ذكره من العلم الواجب تعلمه، و(**المسألة**) تطلق عند العلماء على القضية من قضايا العلم، يقال (مســـألة) لأنه يجري فيها البحث والسؤال.

قال: (الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ): هذه أول المراتب وهو العلم لأن العلم مفتاح كل شيء، فأول ما يجب عليه المكلف هو العلم، لأنه لا فائدة من عمل بلا علم، فلا بد من العلم، وأشرف أنواع العلوم على الإطلاق: ما تضمن شرف المعلوم، فشرف العلم ينبني على شرف المعلوم، وأشرف معلوم هو الله سبحانه وبحمده، ولهذا كان أوجب الواجبات هو العلم بالله، وفسر العلم بأنه معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، لكن ليس المراد المعرفة النظرية المجردة، بأن يُقر الإنسان بوجود الله، وببعثة نبيه صلى الله عليه وسلم، وبأنه يوجد دين على وجه الأرض يقال له الإسلام، وإنما المقصود المعرفة التي تثمر الإيمان والاتباع فذلك هو العلم المطلوب. فالعلم بالله المقصود به: العلم به بمقتضى أسمائه وصفاته المورث لطاعته وعبادته سبحانه وبحمده.

(**ومعرفةُ نبيِّهِ**): والعلم بشخص محمد بن عبد الله الذي يورث: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع على لسانه. ليس مجرد العلم النظري أو التاريخي.

(**ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ**): العلم بأن لله دينًا افترضه على البشر ليعبدوه، وأنه خلقهم لذلك، وأن ذلك الدين هو الذي شرعه لأنبيائه من لدن نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وهو دين الإسلام الذي أمر به الناس جميعًا.

۞**فالإســـــــــلام له معنـــــيـــان**: معنـــى عـــــــــام، ومعنـــــــى خـــــــاص.

- **الإسلام بالمعنى العام**: وهو ما بعث الله به جميع أنبيائه ورسله، كما قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه و تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا } [المائدة: ٤٤] ، فجميع أنبياء بني إسرائيل مسلمون، وكما قالت بلقيس ملكة سبـــــأ: {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: ٤٤] ، فدين الله على مر العصور هو الإســـــلام، ليس لله دين سوى الإســـــــــلام.

فالإسلام بالمعنـــى العام: هو الاستســـلام لله بالتوحيد، والانقيـــاد له بالطاعة، والخلوص له من الشرك.

- **وأما الإسلام بالمعنـــى الخـــــاص**: فهو ما بعث الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم من الهدى، ودين الحق، المتضمن للعقائد الصحيحة، والشرائع العادلة والأخلاق الرفيعة، والآداب العالية، الناسخ لما قبله من الأديـــــــــان.

(**بالأدلةِ**): أي أن تكون هذه المعارف مقرونة بالأدلـــــــــــــة، والدليل: هو ما يرشد إلى المدلول. فينبغي لنا معاشر المؤمنين أن ندرك العلم بدليله: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} [هود: ١٧]، من كان على بينة من ربه ليس كمن {يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ} [الملك: ٢٢]، أو على جري العادة، أو يحكم الوراثـــة أو ما أشبه ذلك، فينبغي ألا تعقد على مسألة من المسائل إلا وقد فقهت دليلها، لكي تعبد الله على بينة.

والأدلـــــــــــة متنوعـــــة منهـــــــــــــــا:

الأدلة السمعـــيـــــــــة: فهي ما جاء عن الله تعالى أو عن أنبيائه، فما ثبت بكتاب الله أو في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو دليل سمعي، يجب الصيرورة إليه، وتقديمه على كل شيء.

- **الأدلة العقـــليـــــــــة**: وذلك أن الله سبحانه وتعالى فضلنا على سائر المخلوقات بهذه العقول ، وجعل العقل من وسائل الوصول للعلم، نجد قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ} [النساء: ٨٢]، { أَفَلَا يَعْقِلُونَ } [يس: ٦٨]، {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤] {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة: ١٦٤]، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [يوسف: ٢]، { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الزخرف: ٣]، {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} [المؤمنون: ٦٨]، {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [ص: ٢٩] والله تعالى قد ضمن كتابه أدلة عقلية وإليكم هذا المثـــال: كان جبير بن مطعم-رضي الله عنه- من أسرى بدر، وقد ربط إلى سارية من سواري المسجد فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة في صلاة المغرب بسورة الطور، فلما بلغ قوله الله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } [الطور: ٣٥]، قال: كـــاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما دخل الإيمان في قلبـــــــي. هاتان الجملتان دليلان عقليان صريحان لا يُبقيان مجالًا لأي شبهة، {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } [الطور: ٣٥]، فلا هـــــذا ولا ذاك.فالله خالقـــهم فهو المستـــحق للعبـــــــــــادة وحده.
- **أدلـــــة حسيـــــــــــــة**: وهي ما أودع الله تعالى في ملكوت السماوات والأرض، { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ١٠١]، ولهذا نجد في كتاب الله: قوله: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} [الواقعة: ٥٨]، {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ} [الواقعة: ٦٣]، { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} [الواقعة: ٦٨] {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ } [الواقعة: ٧١].

- **أدلـــة فطـــــــريـــة**: وهي ما جبل الله عليه النفس الإنسانية من الحق، قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [الروم: ٣٠] ولأجل ذا حمل بعض العلماء قول الله عز وجل {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٧٢] على ميثاق الفطرة، فقد أودع الله تعالى في القلب وفي النفس، الفطرة السليمة، وهي {الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم: ٣٠]، دين الإسلام.

فجميع الأدلـــة تتعاضد في الدلالـــة على الحق، فلا عـــذر لمبطل.

(الثانيةُ: العملُ بهِ)

العـــلم يهتـــف بالعمـــل فإن استجاب وإلا ارتحـــل

، لا بد من العمل لا يكفي مجرد العلـــم، لأن العلم حجـــة لك أوعليـــك، فإن عملت به فهو حجة لك، وإن أهملته كان حجة عليك. ولهذا نجد في كتاب الله كثيرًا القرن بين العمل والإيمان { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الشعراء: ٢٢٧]، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [البقرة: ٢٧٧]، {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }[النساء: ١٧٣]، فالعمـــل ثمـــرة العلـــم، وقد بعث الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأمـــريـــن: بالهدى ودين الحق، فالهـــدى هو: العلم النافـــع، ودين الحق هو: العمـــل الصالح.

واعلم أن العمل يكون أحيانًا قلبيًا، وأحيانًا يكون بدنيًا، وأحيانًا يكون لسانيًا، وأحيانًا يكون ماليًا، بعض الناس يتصور أن العمل يكون في حركة الأبدان فقط، كلا!، فالعمل أوسع من ذلك، فإذا أقمت في قلبك الرجاء والخوف والتوكل والمحبة والخشية والإنابة فأنت في الحقيقة تعمل بعلمك لأن هذه المذكورات أعمال قلوب، وأعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح.

ومن الأعمال:

أعمال بدنية: كالصلاة والحج وإماطة الأذى عن الطريق.

أعمال مالية: وهو ما يبذله الإنسان من زكاة وصدقة.

أعمال قولية: وهو ما يلفظ به اللسان من الذكـــر وتلاوة القرآن وغير ذلك.

(الثالثةُ: الدعوةُ إليهِ): من حصّل العلم واشتغل به، حمله ذلك على الدعوة إليه تلقائيًا لأن المؤمن كالزهرة يفوح أريجها، ولا تُمسك بل يخرج وينتشر حولها وكذلك المؤمن، إذا علِم فإن علمه ذلك يحمله على نشره علمه بدرجات متفاوتة، بحسب ما آتاه الله. فالدعوة إلى الله عز وجل من لوازم العلم والعمل ومن الأمور التي تجب على كل مسلم بقدر ما آتاه الله، ولهذا قال الله عز وجل مخاطبًا نبيه : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل: ١٢٥]، وقال سبحانه: " {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [الشورى: ١٥] "، فيجب على كل مؤمن أن يستصحب هذه المرتبة وهي الدعوة، لا يقولن قائل: الدعوة من خصائص هيئة كبار العلماء أو من

خصائص حملة الشهادات الكبرى! أو نحو ذلك. فالدعوة إلى الله واجب كل مؤمن فيما أعلمه الله تعالى أياه وأوقفه عليه، ولا بد أن يتأدب الدعية بالآداب القرآنية: بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ،كما قال في الآية الأخرى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت: ٤٦]، وفضل الدعوة عظيم فإن صلى الله عليه وسلم قد قال:

- [فلأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمر النّعم].
- [من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئًا]، وكذلك من دعا إلى ضلالة، فلهذا نجد أن الله تعالى يسمي هؤلاء أئمة، وهؤلاء أئمة، فأهل الإيمان: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٤] "، وأهل الضلالة: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} [القصص: ٤١]

(**الرابعةُ:الصبرُ علَى الأَذى فيه):** من علم وعمل ودعا، فلا بد أن يُبتلى؛ فلذلك عليه أن يوطن نفسه على الصبر، قال لقمان –رحمه الله – في مواعظه لابنه: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: ١٧] فمن أمر ونهى ودعا؛ فليتوقع حصول الأذى القولي، والأذى المعنوي، فينبغي أن يوطن نفسه على الصبر فيما يدعو إليه، ولا يظن أنه إذا دعا إلى الله سيستقبل بالورود والرياحين، وتُفسح له المجالس، بل سيلحقه من الأذى والابتلاء بقدر إيمانه، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم:[أشد الناس بلاءً النبيون ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زِيد له في البلاء، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه].

والصبر لغة: الحبس، والمنع والمراد به : حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، ومنزلته في الدين عظيمة، أنه كمنزلة الرأس من الجسد، **وهو أنواع:**

- فمنه الصبر الصبر على طاعة الله.
- ومنه الصبرعن معصية الله.
- ومنه الصبر على أقدار الله المؤلمة

ثم إنّ الشيخ –رحمه الله– بعد أن قرر المراتب الأربع، أتبع ذلك بالدليل **فقال: والدليلُ قولُه تعالَى: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[العصر: ١–٣]**: أقسم الله في مستهلها بالعصر وهو الدهر والزمان، وجواب القسم {إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}.

الإنسان ها هنا جنس الإنسان بدليل الاستثناء بعد ذلك، فهو في خسر في خسار وبوار إلا من استثنى الله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا}: أي صدقوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم ونطقوا بألسنتهم، فلا بد أن يكون عملًا صالحًا والعمل الصالح هو ما وافق السنة، وما سواه فإنه لا يكون صالحًا.

{إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}: هاتان الجملتان جمعتا بين الإخلاص والمتابعة، فالإيمان يدل على إخلاص العبادة لله تعالى، والعمل الصالح يدل على المتابعة.

{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} ومعنى تواصوا: أي أوصى بعضهم بعضًا، فهي مفاعله (تواصوا بالحق) أي بالالتزام به والتمسيك به، وما أحوج أهل الإيمان إلى التواصي بالحق!، فإن المؤمن إذا رأى من أخاه يشدّ أزِر، قوي، ولهذا قال موسى عليه السلام: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا } [طه: ٢٩ - ٣٥] ، وفي هذا لفتة لطلبة- العلم- أن يتعاونوا فيما بينهم، ويتواصوْ بالحق، وتدارس العلم فيما بينهم.

{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}: أي يصبر بعضهم بعضًا على ما يلقون في ذات الله، فمن تأمل في هذه السورة العظيمة وجد أنها دلت على المراتب الأربع السابقة.

قال: (قالَ الشافعيُّ رحِمَهُ اللهُ تعالَى): الشافعي - رحمه الله-: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ولد في غزة - فك الله أسررها ونصر أهلها-، سنة ١٥٠هـ وكانت وفاته سنة ٢٠٤هـ، وعلى قصر عمره -رحمه الله- فهو إمام متبوع من أئمة المسلمين.

قال:" لوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ": ليس مراده -رحمه الله- أن هذه السورة تغني عن بقية القرآن والسنة، المقصود بالحجة يعني حجة العبودية والاتباع. وأما تفاصيل الدين ومعرفة مفردات الشريعة فلا شك أن السورة لم تتضمنها، ولكن هذه السورة أصل عظيم في التوحيد والاتباع، والتواصي بالحق والصبر.

(وقال البخاريُّ -رحِمَهُ اللهُ تعالى-): هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، كانت ولادته في بخارى، وإليها ينسب، سنة ١٩٤هـ، وفاته سنة ٢٥٦هـ، وهو والشافعي من أئمة الدين، الأول في الفقه والثاني في الحديث.

(وقال البخاريُّ رحِمَهُ اللهُ تعالى: بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ): قيل أن فقه الإمام البخاري في تراجمه، فلم يكن يخلط كلامه بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل يكتفي بتراجم يبوب فيها أبوابًا تدل على عميق فقهه -رحمه الله-، فمن ذلك قوله هنا: **بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ والدليلُ قولُه تعالَى :﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد:١٩]، فبدأَ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ**: وهذا ملحظ لطيف، واستنباط دقيق، فأمره بالعلم قبل الاستغفار، مما يدل على البداءة بالعلم قبل القول والعمل.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثلاثة مسائل

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

📖 **قال المؤلف –رحمه الله–:**

اعلمْ رحِمَكَ اللهُ :أَنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ هٰذه الثلاث مسائل والعملُ بهنَّ:

الأولى: أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا ولم يتركْنا هملًا؛ بل أرسلَ إلينا رسولًا فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ.

والدليلُ قولُهُ تعالى :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزمل:١٥-١٦].

الثانية: أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

الثالثة: أنَّ مَنْ أطاعَ الرسولَ ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ.

والدليلُ قوله تَعَالىٰ :﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢].

قال: اعلمْ رحِمَكَ اللهُ :أَنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ هٰذه الثلاث مسائل والعملُ بهنَّ: جزم الشيخ جزمًا أكيدًا بوجوب تعلم هذه المسائل والعمل بهن، وهذا الجزم ناتج عن قوة اليقين ورسوخ العلم.

المسألة الأولى: أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا ولم يتركْنا هملًا؛ بل أرسلَ إلينا رسولًا: وهذا أمر دلت عليه أنواع الأدلة:

- فأما الأدلة السمعية فكثيرة جدًا: قال الله تعالى: " {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: ١٦] " وقال سبحانه وتعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان: ٢] وقال سبحانه وتعالى { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤] وقال سبحانه" {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ} [الأنعام: ٢] " {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦].
- وأما الدليل العقلي فقوله تعالى: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور: ٣٥] ففي هاتين الآيتين الجملتين إبطالٌ لنظرية الصدفة ولنظرية الطبيعة ذلك أن من الملاحدة يزعمون أن هذا الكون وجد صدفة؟ ومنهم من يقول أوجدته الطبيعة، وهذا إنكار للأدلة الضرورية التي جاءت بها الرسل الدالة على أن الله تعالى خلق آدم وخلق منه زوجه، وبث منهما رجالًا كثيرا ونساء. ويرد على القائلين بالصدفة أن الصدفة عمياء بكماء صماء لا يمكن أن يحال عليها. ويرد على القائلين بالطبيعة أن الشيء لا ينشئ نفسه فقول الله تعالى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور: ٣٥] تنسف هذه النظريات الإلحادية، ومنها نظرية النشوء والترقي التي تنسب إلى داروين، وهي أن الإنسان كان قردًا وتطور حتى وصل إلى هذا الحال! فهذه دعاوي باطلة معارضة لما أخبر الله به في كتابه وجاءت به جميع رسله من أن الله خلق آدم من قبضة طين ونفخة من روح فكان الخلق.

وليس مراد الشيخ –رحمه الله– **بقوله: أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا**– إثبات الخلق والرَّزق، فإن هذا أمر تدركه الفطر، وإنما مراده ما بعده – وهو قوله: **ولم يتركْنا هملًا؛ بل أرسلَ إلينا رسولًا**– أي أن مقتضى حكمته سبحانه وبحمده أن لا يخلقنا ويرزقنا ثم يدعنا، هملاً، بل خلقنا لحكمة، كما قال سبحانه وتعالى: { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون: ١١٥]، وقال سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، فلا يمكن أن يكون الله عز وجل بث هذه البشرية في الأرض لأجل أن تأكل وتشرب وتنكح وتنام وتستيقظ وتموت ثم ينتهي الأمر، هذا لا يتفق مع حكمته، فلهذا قال: **بل أرسلَ إلينا رسولًا فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ**: **(رسولًا)** هنا يمكن أن يكون اسم جنس، فإنه قد أرسل إلى كل أمة رسولًا، كما قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤] {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا} [النحل: ٣٦]، يمكن أن يكون الرسول في حقنا هو خاتمهم وأفضلهم صلوات الله وسلامه عليه.

فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ: قولُهُ تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا**﴾**[المزمل:١٥-١٦]**: هذا المنطوق وأما المفهوم؛ فمن أطاعه فإن الله تعالى يكرمه ويثيبه ويأجره ويدخله الجنة، كما جاء صريحًا في قول

النبي صلى الله عليه وسلم :[كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى، فقيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار]، رواه البخاري.

المسألة الثانية: أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل: قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾**[الجن:١٨]**، فالمساجد هي مواضع السجود أو فعله، فالسجود لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى، ولا يجوز صرف عبادة لغير الله وقد جاء في الحديث القدسي: [أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معيَ فيه غيري تركته وشركه]، قواعد عظام مباني كبار لا بد أن تستقر في نفس المؤمن.

المسألة الثالثة: أنَّ مَنْ أطاعَ الرسولَ ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ.

والدليلُ قوله تَعَالىٰ :﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢]:

هذا هو مشروع شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– وهو الولاء والبراء، فإنه أراد أن يحمل الناس على توحيد رب العالمين والبراءة من الشرك والمشركين، فأعلمهم أن ثمرة الأمرين الأوليين هو أن يواليَ في الله ويعادي في الله، لأن من استقر في قلبه توحيد رب العالمين واتباع سيد المرسلين فلا بد أن يثمر في قلبه محبة المؤمنين ومعاداة الكافرين ثم استدل بقول الله تعالى: ﴿**لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾**[المجادلة:٢]**: لا يمكن أن يوجد ذلك! بشهادة رب العالمين، لا يمكن أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويجتمع مع إيمانهم ذلك مواده لمن حاد الله ورسوله، ومعنى ﴿**حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾: أي وقف في حد يقابل حد الله ورسوله، فهو مناوىء لله ورسوله، فلا يمكن أن يجتمع في قوم إيمان بالله واليوم الآخر ومودة للمحادين لله ورسوله أبدًا.

قال نبينا صلى الله عليه وسلم: [أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله]، ويدل على قول الشيخ: **ولو كان أقْرَبَ قريبٍ**، قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾، فإذا تزاحم في القلب موالاة الله رسوله، مع موالاة أعداء الله ورسوله، فإن الأمر محسوم، فالمؤمن الحق يقدم محبة الله ورسوله كما قال تعالى في آية براءة: { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [التوبة: ٢٤]، إذن لا يجتمعان.

ومن أعجب ما جاء في السيرة أن أبا سفيان-رضي الله عنه- لما كان مشركًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة في المدة التي ماد أهل قريش فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل على ابنته رمله - أم حبيبة- زوج رسول الله صلى عليه وسلم، فلما أراد أن يجلس قامت -رضي الله عنها- وطوت الفراش فقال: أي بنية أرغبتي بي عن هذا الفراش، أم رغبتي بهذا الفراش عني؟ قالت: بل رغبت بهذا الفراش عنك، هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت مشرك نجس، تقول هذا لأبيها، لتبين له أن حقيقة الإيمان يعيد ترتيب الأولويات وأن الإيمان يقدم ويؤخر.

ومن شواهد ما جرى لأصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم ما وقع لمصعب بن عمير -رضي الله عنه- فإن إثر يوم بدر أُسر أخوه لعل اسمه كان حبيبًا فأسره أحد الأنصار فمر مصعب وقد أوثقه الأنصاري، فلما رأى أخاه استبشر فمر مصعب، فقال للأنصاري أوثق عليه يدك فإن أمه ذات مال فقال مذكرًا أيه ظن لم يعرفه أنا أخوك، قال: هو أخي قبلك.

فهذا يدلنا على عظم هذه الخصلة وهي الموالاة الحب في الله والبغض في الله، وهي أوثق عرى الإيمان، فلهذا أثنى الله على أهلها، فقال سبحانه: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، جعلنا الله وإياكم منهم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أعلم أرشدك الله.

📖 **قال المؤلف -رحمه الله-: اعلَمْ -أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه -أنَّ الحنيفيةَ: مِلَّةَ إبراهيمَ، أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا لـه الدِّين، وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لهـا، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالإِنـسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، ومعنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ يوحِّدون، وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبـادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ، والدليل قولـه تعـالى: ﴿وَاعْبُـدُوا اللَّـهَ وَلا تُشْـرِكُوا بِـهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦].**

كرر الشيخ صيغة الأمر (**اعلم**) ليؤخذ الأمر مأخذ الجد والاحتفاء. ثم دعا لسامعه فقال: **أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه**، والرشد : ضد الغي والسفه، وهو: الاستقامة والصواب، والمقصود بالطاعة: الموافقة، موافقة الأمر فيما يحب؛ بامتثاله وفيما يكره؛ باجتنابه.

أنَّ الحنيفيةَ: مِلَّةَ إبراهيمَ، أنْ تعبدَ اللهَ: جملة"مكونة من (أنَّ) واسمها وخبرها، (**الحنيفية**) هي اسم أنْ، (**ومِلَّةَ إبراهيمَ**) ليست خبرها، وإنما هي بدل، من الحنيفية (**أنْ تعبدَ اللهَ**) الجملة المؤولة من أنْ وما دخلت عليه هي خبر أنْ.

والحنيفية مأخوذة من الحنف وهو: الميل، فالمقصود بالحنيفية :الميل عن طريق الشرك إلى طريق التوحيد ومنه تسمي العرب الأحنف للرجل الذي في مشيه ميل، فمعنى الحنيف: أي المائل عن طريق الضلال إلى طريق الهدى، وقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بهذا الوصف في غير ما موضع، فقال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٣] ، فالحنيفية هي: ملة إبراهيم عليه السلام وبها بعث محمد عليه الصلاة والسلام، فقد بُعث عليه الصلاة والسلام بالحنيفة السمحة. واصطلاحًا:وهي ملة إبراهيم.

والملة المقصود بها : الطريقة والسيرة.

وأما إبراهيم عليه السلام فهو أحد أولى العزم من الرسل، وهو أفضل الأنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو إمام الموحدين في الأولين، وقد اتخذه الله تعالى خليلًا كما أن الله اتخذ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خليلًا، فقال تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: ١٢٥]، والخلة هي أعلى المحبة وما ذاك إلاّ لأن إبراهيم عليه السلام قد محض العبادة لله رب العالمين فلم يبقَ في قلبه نزعةٌ وميلٌ إلى سوى الله عز وجل، وقد ابتلاه الله عز وجل بمواقف عظيمة أثبتت كمال توحيده لله تعالى، ومن ذلك ما جرى بينه وبين قومه حينما واجههم جميعًا وحاجّهم تلك المحاجة العظيمة حتى وصل به الأمر أن حطم آلهتهم وجعلهم جذاذًا حتى اجتمعوا عليه وقالوا : {أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ} [الأنبياء: ٦٢]؟ ثم إنهم وضعوا له نارًا عظيمة وألقوه فيها وهو لم يحد عن توحيده لله عز وجل، فلما هوى وتحته ألسنة النار عرض له جبريل فقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟، قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى . وكان يقول {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣] فامرؤ هذا حاله في هذه المواقف العصيبة لا شك أنه قد قام قي قلبه من توحيد رب العالمين ما لا يبلغه وصف.

ومن دلائل توحيده عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى ابتلاه بحبة قلبه وثمرة فؤاده وهو ابنه الذي أتاه على حين كِبَر فأراه الله تعالى في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء حق له { يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى } [الصافات: ١٠٢] وما كان يستشيره في ذلك بل كان يتلطف في إخباره فما تدري أتعجب من الأب أم تعجب من الابن {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: ١٠٢] قال تعالى : {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [الصافات: ١٠٣] أي كما يصنع من يريد أن يذبح الشاة بالشاة {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا } [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، هكذا يكون التوحيد بأن يفرغ القلب من كل شبهة تخالف خبر الله ورسوله ومن كل شهوة تخالف أمر الله ورسوله، فهذا هو القلب السليم، فلذلك كان إبراهيم عليه السلام يدعو ربه عز وجل بأن يأتيه بقلب سليم فقال: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٧ – ٨٩]، والقلب السليم: هو الذي سلم من كل شبهة تخالف خبر الله ورسوله ومن كل شهوة تخالف

أمر الله ورسوله . فصار إبراهيم عليه السلام مثلًا وعلمًا على التوحيد، ولذلك أمر الله تعالى نبيه بآتباعه وأحاله على ملته، وصار كل من أتى بعد إبراهيم عليه السلام ينتحله وينتمي إليه، ولكن ذلك لا يكون إلا لمن وافقه حقًا وصدقًا، ولذا أنكر ربنا عز وجل دعوى أهل الكتاب فقال: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ } [البقرة: ١٤٠] ، وقال أيضًا: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [آل عمران: ٦٧] ، وقد رد الله على أهل الكتاب دعوى الإبراهيمية وقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [آل عمران: ٦٥].

فإبراهيم عليه السلام هو إمام الموحدين واليهود والنصارى يحاولون الانتماء إلى إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام منهم براء ،بسبب ما أحدثوه من كفر وشرك وبسبب رغبتهم عن ملته قال تعالى {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ } [البقرة: ١٣٠]

قال قتادة– رحمه الله تعالى – وغيره : " رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم -يعني الإسلام- حنيفا؛ كذلك بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بملة إبراهيم[1]. فالموافقين لملة إبراهيم عليه السلام هم المسلمون، وأما اليهود والنصارى فقد حادوا عن ملة إبراهيم بسبب إفسادهم في دينهم وإدخالهم البدع العقدية على ملتهم.

فالحنيفية ملة إبراهيم كما عرفها الشيخ؟ هي أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، بأن تفرد الله بالعبادة وحده، ومعنى الإخلاص: التنقية ، مخلصًا له الدين أي : مخلصًا له العبادة، وبذلك أمر لله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، فالله تعالى خلق الخلقة لعبادته، وهذا الاستثناء يسمى استثناء مفرغ من أعم الأحوال، مثل قولنا: (لا إله إلا الله) لأنه لا يحصل التوحيد التام إلا بالنفي والإثبات، فقوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ} هذا نفي، { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} هذا إثبات، وقد فسر ابن عباس -رضي الله عنهما- يعبدون أي :يوحدون؛ لأنها لا تكون عبادة حقًا إلا بتوحيد .فمن عبد الله وعبد معه غيره فهو مشرك، ومن لم يعبد الله عز وجل فهو كافر مستكبر، ومن عبد الله فهو الموحد الحنيف.

ما هي العبادة ؟.

العبادة لها معنى من حيث اللغة ومعنى من حيث الاصطلاح:

- **أما العبادة من حيث اللغة فمعناها**: التذلل والخضوع، تقول العرب: بعير معبد أي مذلل، ويسميه الناس الذلول لكونه مذلل للركوب، وتقول العرب أيضًا:طريق معبد أي: مهيأ للسير عليه.
- **وأما في الاصطلاح**: فلها معنى من حيث حقيقتها ومن حيث مفرداتها:

(١) تفسير الطبري (٨٩/٣).

أما حقيقة العبادة: فهي كمال المحبة مع كمال الخضوع: أي أن يكون العبد في قلبه محبة تامة وخضوع تام، فمن قام في قلبه هذان المعنيان فهو عابد حقًا.

وأما من حيث مفرداتها : فأجمع تعريف لها، ما عرفها به شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة(١).

هذه هي العبادة التي خلقنا الله لها، فالله تعالى ما خلقنا لكي نعمر الأرض بالأكل والشرب والنكاح والتكاثر والنوم واليقظة والموت ثم ينتهي الأمر { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون: ١١٥]، خلق الله الخليقة لعبادته، فهذه هي حقيقة العبادة التي أمر الله بها جميع أنبيائه، فلا يظن ظان أن هذا هو فقط دين محمد عليه الصلاة والسلام أودين إبراهيم عليه السلام فحسب؛ كلا ، قال الشيخ: **وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لها.**

قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [الشورى: ١٣]، هذا هو مضمون رسالات الأنبياء جميعًا، وهي عبادة الله وحده دون ما سواه، ومما يدل على هذه الجمعية قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء: ٢٥]، أهل الإيمان يقرؤون التاريخ قراءة إيمانية، فيرتبون التاريخ من لدن آدم عليه السلام مرورًا بنوح عليه السلام عبر أنبياء الله كما يصنع ابن جرير وابن كثير وغيرهما، وأما الماديون والغربيون ومن سار على شاكلتهم فإنهم يقرؤون التاريخ قراءة سطحية فيقولون: التاريخ القديم والتاريخ الوسيط والتاريخ المعاصر ويَصُفُّون الرسالات النبوية مصافَّ الدول والأمم والمماليك المتعاقبة، وكأنما هي مظهر من مظاهر التاريخ، بينما نحن أهل الإسلام نرى أن التاريخ هو هذه السلسة من هذه الحلقات المتصلة من أنبياء الله عز وجل فنرى أن صلاح البشرية حينما تقترب من خط النبوة، وأن انحراف البشرية حينما تفترق عن خط النبوة، والمقصود أن العبادة تتناول جميع أمور الحياة، وليست العبادة هي ما تحيط به هذه الجدران الأربعة وما يغطيه هذا السقف في المساجد، كلا، الحياة كلها مضمار للعبادة، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢] ، فما من صغيرة ولا كبيرة ولا شاذة ولا فاذة إلا وتندرج ضمن العبادة، لمن أصلح الله قلبه وأنار بصيرته، فالمؤمن اللبيب هو الذي يحول عاداته إلى عبادات، والغافل هو الذي يقلب عباداته إلى عادات، بحيث تكون جري العادة وتقليدًا وميراثًا، **وكم أن العبادة تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: عبادة كونية: وهي مادلَّ عليها المعنى اللغوي .

القسم الثاني: عبادة شرعية: وهي مادلَّ عليها المعنى الشرعي .

فالعبادة الكونية تشمل جميع المخلوقات لا يخرج عنها أحد قال تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا } [مريم: ٩٣، ٩٤] ، فكل من يدب على وجه الأرض فهو عبد لله

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩).

شاء أم أبى، لأنه خاضع لنواميس الكون لا يخرج عن قدر الله، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فجميع المخلوقات بهذا الاعتبار داخلة في العبودية الكونية العامة.

وأما العبودية الشرعية الخاصة، فهي عبودية المؤمنين التي تعني الموافقة والطاعة والمتابعة لدين الله عز وجل.

ويمكن أن نضيف قسمًا وهو عبودية خاصة الخاصة :وهي التي يختص بها أنبياء الله، لأنهم أكمل الناس عبادة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التوحيد – الشرك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال: وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦]: التوحيد أعظم ما أمر الله به وله ما بعده وبدونه لا قيمة لشيء، التوحيد في اللغة: جعل الشيء واحدًا، والمراد به هنا: اعتقاد الله واحدًا، ولذلك كان التوحيد بالمعنى الاصطلاحي: إفراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية وبالعبادة وبالأسماء والصفات.

۞التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: توحيد الربوبية: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لا خالق سواه، وهو المالك لا مالك سواه ،وهو المدبر لا مدبر سواه. وبعبارة أخرى: إفراد الله بالخلق والملك والتدبير؛ لأن هذه الثلاثة عليها مدار الربوبية وبقية صفات الربوبية ترجع إلى هذه الثلاثة. وتوحيد الربوبية قد فطر عليه جميع الخلائق؛ الإنس والجن الطير والبهائم.

ولم يكن مخالفو الرسل ينازعون في توحيد الربوبية، بل كانوا يقرون جميعًا بأن الله تعالى هو الخالق والمالك والمدبر، ولا يعرف أحد من البشر أنكر توحيد الربوبية إلا أفراد قلائل شواذ، ومن أشهر من عُرف بتظاهره بإنكار الربوبية فرعون حينما قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٢٣] ؟!! لكنه قال ذلك بلسانه تكبرًا وتجبرًا، فقد أخبر الله عنه وعن قومه بأنهم {جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤] ، وقال له موسى عليه السلام: { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } [الإسراء: ١٠٢] ، ولم يكن مشركو العرب الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ينكرون توحيد الربوبية، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [الزخرف: ٩]، وكانوا يذكرون اسم الله عز وجل في أمور كثيرة لكنهم يفسدون ذلك بالشرك.

القسم الثاني: توحيد الإلوهية: ويسمى أيضًا توحيد العبادة، والمقصود به: إفراد الله بالعبادة، بمعنى ألاَّ يصرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله عز وجل، كانت تلك العبادة عبادة قلبية: كالخوف والرجاء والمحبة والتوكل، أو كانت عبادة لسانية: كالدعاء والذكر وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو كانت عبادة مالية: كالصدقة والزكاة، أو كانت عبادة بدنية: كالصلاة والحج والجهاد في سبيل الله وإماطة الأذى عن الطريق .

وهذا هو ما بعث الله به أنبياءه جميعًا، فإن مهمة الأنبياء تعبيد الناس لرب العالمين ونفي الشركاء عن الله عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦] ؛ فلا بد من الجمع بين الأمرين: عبادة الله، واجتناب الطاغوت معًا حتى يتحقق التوحيد .

ومعنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله): أي لا معبود بحق إلا الله، ففيها نفي كل معبود سوى الله ،وإفراد الألوهية وحصرها في الله عز وجل، وهذا النوع من التوحيد هو معترك الصراع وحلبة التراع بين الأنبياء وأقوامهم، فقد كان الأنبياء يبادئون أقوامهم بجملة واحدة {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩] ، قالها نوح، وهود، وصالح، وشعيب، عليهم الصلاة والسلام، كما ذكر الله ذلك في سورة الأعراف والشعراء إلى أن انتهت النوبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقالها صريحة مدوية قولوا: لا إله إلا الله، فهذه القضية وهي توحيد الألوهية أو توحيد العبادة ومفترق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك .

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو أن يعتقد العبد أن الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى لا يشاركه ولا يماثله أحد في أسمائه وصفاته. وقد جرى الخلف في هذا القسم بين أهل القبلة؛ أي المنتسبين إلى الإسلام، فقد نازع في هذه القضية على درجات متفاوتة المخالفون من أهل التعطيل ومن أهل التمثيل، وهدى الله أهل الإيمان والسنة إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه؛ فصاروا يثبتون ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه من غير تعطيل ،ولا تحريف، ومن غير تمثيل ولا تكيف، وينفون عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه في كتابه أو ما نفاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم .

وتختلف تقسيمات العلماء للتوحيد:

- فمن العلماء من يقسم التوحيد إلى هذه الأقسام الثلاثة السابقة.
- ومنهم من يقسمه تقسيمًا آخر، لا يعارض التقسيم الثلاثي، **فيقول التوحيد نوعان:**

النوع الأول: توحيد المعرفة والإثبات: ويشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

النوع الثاني: توحيد القصد والطلب: وهو توحيد الإلوهية أو توحيد العبادة، ولا تعارض بين التقسيم الثنائي والتقسيم الثلاثي، وزيادة في الإيضاح فأن توحيد "المعرفة والإثبات" يسمي أيضًا التوحيد العلمي، والتوحيد الخبري، والتوحيد النظري وكلها أسماء لمسمي واحد، أما توحيد "القصد والطلب"، فإنه يسمي التوحيد العملي، وتوحيد العبادة، وتوحيد الألوهية وكلها أسماء لمسمي واحد، فالنوع الأول: دلت عليه سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)

اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)}، والنوع الثاني: دلت عليه سورة الكافرون {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)} ، ولأجل ذا كان نبينا صلي الله عليه وسلم يحتفي بهاتين السورتين وتشرع قراءتهما في صلوات عدة كركعتي الطواف، وركعتي الفجر، وفي الوتر، وكذلك في أوراد الصباح والمساء وأذكار النوم، وما ذلك إلا لعظيم فضل هاتين السورتين، وتضمنهما للتوحيد بجميع أنواعه.

قال: وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ: قال تعالى {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: ١٣]، وقد جعله النبي صلي الله عليه وسلم أعظم الظلم، فلما تلا النبي صلي الله عليه وسلم قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ (بِذَلِكَ) أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: ١٣]))[1]، فالظلم المحذور هو الظلم الذي هو الشرك بالله، قال تعالى مبينًا شؤم عاقبته: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } [الحج: ٣١]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٨] ، وفي آية أخرى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١١٦].

فإن الله لا يقبل من مشرك عملًا، والشرك يهدر الإنسانية ويهدم العبودية، ويحبط العمل، ويبيح الدم والمال؛ ، قال تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} [التوبة: ٥٤] ، ففي الدنيا لا يقبل من مشرك عملًا، قال تعالى في الحديث القدسي: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[2]، وأما في الآخرة فإن الله يحبط جميع الإعمال، قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } [الفرقان: ٢٣] ، وقال تعالى {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الزمر: ٦٥] ، فيجب أن يكون عمدة دعوتنا الدعوة إلي التوحيد والتحذير من الشرك، فقبل أن نحذرهم من الشهوات والمعاصي نحذرهم من الشرك بالله؛ لأنه إذا صلحت قلوبهم تخلصوا من تبعات ذلك من المنكرات والمعاصي، وقد سئل النبي صلي الله عليه وسلم، فقيل له: (أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا)[3].

---

(١) صحيح البخاري (٦٩١٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٨٥).

(٣) صحيح البخاري(٤٤٧٧)، صحيح مسلم (٨٦) .

والظلم: هو النقص، وقال في الحديث أيضًا: (مَنْ لَقِىَ اللَّهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارِ)[1] ، فمن وحد الله توحيدًا تامًا دخل الجنة تلقائيًا، ومن وقع في توحيده شيئًا من الكبائر فهو تحت المشيئة والإرادة إن شاء الله عفا عنه ثم أدخله الجنة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، لكن مآله إلى الجنة لأن عنده أصل التوحيد، وأما من أشرك بالله فانه لا ينفعه أي عمل صالح حتى لو قام بأعمال خيرية في الدنيا فقد تنفعه في الدنيا بتوسعة في الرزق والصحة في البدن لكنها تحبط في الآخرة.

الشرك نوعان:

النوع الأول: شرك أكبر.

النوع الثاني: شرك أصغر.

فالشرك الأكبر: مساواة غير الله بالله فيما يختص به الله في الربوبية أو في الألوهية أو في الأسماء والصفات، فقد يقع الشرك في الربوبية بأن يعتقد خالقًا مع الله، أو مالكًا مع الله، أو رازقًا مع الله، أو مدبرًا مع الله، والشرك في الألوهية: هو أن يعبد مع الله غير الله، والشرك في الأسماء والصفات: أن يعتقد أحدًا يتصف بصفات مماثلة لصفات الله، وفرعون قد وقع في الشرك بجميع أنواعه والكفر بجميع أنواعه فقال: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } [النازعات: ٢٤]، وقال {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، وقال {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي } [الشعراء: ٢٩] .

وأما الشرك الأصغر: فيتعلق ببعض الألفاظ والأعمال التي لا تبلغ مبلغ الشرك الأكبر فلذلك يعرفه بعض العلماء بأنه: ما لم يبلغ حد الشرك الأكبر.

الشرك الأكبر يفترق عن الشرك الأصغر في عدة أمور:

الفرق الأول: **الشرك الأكبر** مخرج عن الملة، **والشرك الأصغر** لا يخرج عن الملة.

الفرق الثاني: **الشرك الأكبر** لا يغفره الله تعالى أبدًا، **والشرك الأصغر** مختلف فيه، فمن العلماء من يقول: يغفر كالكبائر، ومنهم من يقول: لا يغفر ولكن يدخل في الموازنة بين الحسنات والسيئات.

الفرق الثالث: **الشرك الأكبر** صاحبه خالد مخلد في النار مع فرعون وقارون وهامان، **والشرك الأصغر** لا يخلد صاحبه في النار، ومآله إلى الجنة إذا عذب بمقدار ما معه من شرك أصغر.

ومن صور الشرك الأصغر:

- **ما يتعلق ببعض الألفاظ**: كالحلف بغير الله، أو قول: ما شاء الله و شئت، أو مطرنا بنوء كذا وكذا.
- **ما يتعلق ببعض الأعمال**: كمن اعتقد شيئًا سببًا وليس بسبب كالذي يربط الحلقة والخيط أو يستعمل التمائم والرقى.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) صحيح مسلم (٩٣).

فإذا قيل ما الأصول الثلاثة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال المؤلف –رحمه الله–: فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثلاثةُ التي يجبُ على الإنسانِ معرفتُها؟ فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا قيلَ لكَ : مَنْ رَبُّكَ؟ فقلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني ورَبَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ، والدليلُ قوله تعالى :﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة:١]، وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ.

فإذَا قيلَ لكَ: بِمَ عرفْتَ ربَّك؟ فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه؛ ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما، والدليلُ قولُه تَعَالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت:٣٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

قيل إن هذا هو مبدأ الأصول الثلاثة، وما تقدم مضاف إليها، وأيًّا كان فالكلام يماثل بعضه بعضًا. وقد سلك الشيخ مسلك السؤال والجواب، وطريقة السؤال والجواب تنشط ذهن السامع وتذهب عنه البلادة .

والأصول: جمع أصل، وهو ما يبني عليه غيره، ويقابله الفرع. فينبغي لطالب العلم أن يضبط الأصول والقواعد ثم بعد ذلك يشتغل بالفروع والمفردات، وإياك يا طالب العلم أن تعكس، فإن مِن طلبة العلم مَن يشتغل بجمع والتقاط المسائل المنثورات قبل أن يضبط الأصول والقواعد.

وهذه الأصول لم يؤصلها الشيخ من تلقاء نفسه، وإنما اقتبسها من حديث نبوي صحيح، وهو حديث سؤال الميت الذي رواه البراء بن عازب وغيره، أن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ « (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) قَالَ « نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ فَيُقَالُ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم-. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)[1]، ولهذا عدَّ الشيخ هذه الأسئلة التي يسأل عنها الميت أصولًا، وليس مراده أن يعرف الإنسان صيغة السؤال والجواب ولكن أن تستقر في قلبه.

قال: فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فيجب علينا أن نعرف ربنا بمقتضى أسماءه وصفاته: **فأعظم طرق معرفة الله:** هي عن طريق السمع، وهو ما أثبته الله في كتابه وما أثبته النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، من صفات الكمال ونعوت الجلال.

الطريق الثاني لمعرفة الرب: نعرفه عن طر يق مخلوقاته وما بث في الكون كما قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ } [الأعراف: ١٨٥] { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ١٠١] {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يوسف: ١٠٩]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو إلى إنعام الفكر والنظر والتدبر، فإن من سرِّح طرفهُ في هذا الكون وجدَ من الدلائل العظيمة ما يعمر قلبه بالإيمان ويزكيه ويطيبه.

الطريق الثالث لمعرفة الرب عز وجل: النظر في آياته الشرعية أي تدبر كتاب الله عز وجل، يلقيه الله في قلب العبد من الفتوحات الإيمانية، فإن الله تعالى قد وكل بكل إنسان ملكًا، ووكل به قرينًا من الجن، فالملك يفتح له من الفتوحات الإيمانية كما أن قرينه الجني يفتح عليه باب الشك والريبة والحزن.

الأصل الثاني: معرفة الدين: وهو دين الإسلام لا دين سواه فليس لله دينٌ إلا دين الإسلام، ليس لله دينٌ يسمى النصرانية ولا اليهودية، ذلك أن النصرانية هي ما آل إليه دين عيسى عليه السلام بعد تحريف الرهبان، واليهودية هي ما آل إليه دين موسى عليه السلام بعد تحريف الأحبار، أما ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام فهو الإسلام ولكنه الإسلام بالمعنى العام.

فدين الله واحد، كما قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: ١٩]، فدين الإسلام الذي بعث به جميع الأنبياء، الذي يعني بالمعنى العام: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص له من الشرك، ثم بالمعنى الخاص: وهو التزام ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من العقائد الصحيحة والشرائع العادلة والأخلاق القويمة والآداب

(١) صحيح مسلم (٢٨٧١).

العالية، ولذلك تجب معرفته، كما قال المؤلف، والتفقه في الدين؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)(1).

الأصل الثالث: معرفة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه بعث إلينا وإلى جميع الخلق، قال تعالى آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن في العالمين: { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]، فهذا إعلان عالمي للناس جميعًا -إنسهم وجنهم برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم كتابيهم ومشركهم-، دعوة إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباعه.

هذه هي الأصول الثلاثة التي يُسئل عنها العبد في قبره.

قال: فإذا قيلَ لكَ : مَنْ رَبُّكَ؟ فقلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ: هذا تفريعٌ عن السألة الأولى، أراد الشيخ أن يعرِّف الرب بأصل المعنى اللغوي الدال على التربية، والتربية من التنشئة شيئًا فشيئًا رويدًا رويدًا.

قال: فقلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني: رباني أي خلقني وأعدني وأمدني ورزقني.

قال: وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ العالمون: جمعُ عالم، والعالم: هو كل من سوى الله من الآدميين والملائكة والبهائم والطير والدواب والحشرات وما نرى وما لا نرى.

قال: وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ: ما أحسن هذا القرن والربط!، فهو سبحانه الرب، ولما كان ربًا كان مستحقًا للعباده إذ كيف يعبد غيره وهو الذي ربانا وربَّى جميع العالمين بنعمه؟!.

قال: والدليلُ قوله تعالى :﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة:١]: استدل – رحمه الله – بأول آية في سورة الفاتحة " ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الحمد: هو وصف الله بصفات الكمال ونعوت الجلال. ومن العلماء من يعرِّف الحمد بأنه: الثناء على الله، والتحقيق أنه إن تكرر الحمد صار ثناءً، والدليل حديث الفاتحه، وفيه: (إِذَا قَالَ الْعَبْدُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِى عَبْدِى وَإِذَا قَالَ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى)(2).

قال: وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَم: الشيخ يلقن طالب العلم الجواب الصحيح المطابق للواقع. ثم أردف ذلك بسؤال ثالث، فقال: **فإذَا قيلَ لكَ: بِمَ عرفْتَ ربَّك؟** ذلك لمزيد التحقيق، أي فما الأدوات التي دلتك وساقتك إلى معرفة ربك؟ **فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه:** والشيخ -رحمه الله- لم يُرد بذلك حصر الطرائق، وإنما أراد أن يُبين أوضعها أدناها وأسهلها تناولًا والآيات: جمع آية، والآية هي العلامة .

۞ وآيات الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: آيات كونية.

---

(1) صحيح البخاري (٦٧)، صحيح (١٠٣٧).

(2) صحيح مسلم (٣٩٥).

القسم الثاني: آيات شرعية.

- **الآيات الكونية:** وهي ما بث الله في هذا الكون من العلامات الدالة على قدرته، مثل: السماوات والأرضين والشمس والقمر والجبال والشجر والدواب.
- **الآيات الشرعية:** وهي ما أنزل الله بين دفتي المصحف من هذه الآيات المحكمة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ ولهذا يمكن أن نقول: ومخلوقاته من باب عطف الخاص على العام؛ لأن المخلوقات في الواقع نوع من الآيات.

قال: ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما: لعل الشيخ – رحمه الله – اختار أن يُمثل للآيات بما يقع فيه نوع تكرار وتجدد؛ ولذلك ذكر الليل والنهار والشمس والقمر؛ لأنها أحوال تتوالى فيحصل فيها الإعلام لكثرة ورودها وتجددها وتعاقبها، مثل للمخلوقات بأشياء ثوابت فقال: **السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ:** وإلا فإن الكل يصدق عليه أنه آيات الله، ويصدق عليه أنه مخلوقات، ولعله –رحمه الله– لحظ في المجموعة الأولى أن فيها معنى التجدد والتعاقب، وفي الثانية معنى الثبات والدوام؛ ثم ساق الدليل، فقال: **والدليلُ قولُه تَعَالىٰ:** ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾**[فصلت:٣٧]**: فمن رأى هذه الآيات وأحدثت في قلبه معرفة بخالقها قول تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [النبأ: ٦ – ١٦]؛ فينبغي للمؤمن الحصيف أن يستعمل هذه الآيات في إذكاء إيمانه وتقوية يمينه؛ فيستفيد من هذه الآيات الموجودة في الكون لتقوية الإيمان، ولا تمر عليه مرورًا عابرًا، لا، بل ينتفع بها، وقال تعالى: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ } [فصلت: ٣٧] ، وذلك من الناس من كانوا يعبدون الشمس، ومنهم من كانوا يعبدون القمر، قال تعالى: {وَاسْجُدُوا لِلَّهِ} [فصلت: ٣٧] ؛ لأن السجود علامة العبادة والإخلاص لله تعالى الذي خلقهن، فخالق هذه المخلوقات أحق بالعبادة، كيف يعبد المخلوق ويترك الخالق؟!.

قال: وقولُهُ تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾**[الأعراف:٥٤]**: فهذه الأيام الستة كما قال تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧].

قال: ﴿**اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾: أي من بعد أن فرغ الله من خلق السماوات والأرض علا فوق عرشه سبحانه وتعالى علوًا يليق بجلاله وعظمته.

قال: ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ**﴾: أي أن الله عز وجل يجعل الليل يغشى النهار ويغطيه.

قال: ﴿**يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾: في حركه دائمة وتتابع مستمر، (حثيثًا): أي سريعًا كأنما يطرده.

قال: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾: لما كان سبحانه وتعالى له الخلق فهو الجدير الحقيق بالأمر سواء كان أمرًا كونيًا، أمرًا شرعيًا؛ فهل يليق أن يكون الخلق والأمر لغيره؟! هذا لا يستقيم بل لما كان الخلق له كان الأمر له.

قال: ﴿**تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾: البركة: معناها النماء والزيادة، ومثل هذا التعبير لا يكون إلا في حق الله عز وجل.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: والرَّبُّ هو المعبودُ، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١-٢٢]، قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ اللهُ تعالى: الخالقُ لهٰذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادةِ.**

قال: والرَّبُّ هو المعبودُ: لم يرد الشيخ –رحمه الله– أن يعرف الرب بأنه المعبود، وإنما مراده: والرب هو المستحق للعبادة، أي لما كان ربًّا خالقًا مالكًا مدبرًا؛ كان هو المستحق للعبادة فإن المعبود هو معنى (المألوه).

الدليل على ذلك أول أمر ورد في كتاب الله، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾: هذا دليل على أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد العبودية، وأن توحيد العبودية متضمن لتوحيد الربوبية، فمن أقر بأن الله تعالى هو الرب الخالق المالك؛ فإن من لازم ذلك أن يوحده بالعبادة، وهذه طريقة القرآن في إلزام المشركين بتوحيد الله عز وجل ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾: أي يحصل لكم وقاية.

قال: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا**﴾: هذه الأرض جعلها مهادًا موطأة للسير عليها.

قال: ﴿**وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**﴾: سقفًا مبنيًا كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢] وهي بناء محكم.

قال: ﴿**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**﴾: نزول ماء يقابله خروج نبات، حركات متقابلة تدل على سعة خلق الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الأمر كذلك وأنتم مقرون بذلك؛ فلا يستقيم أن تجعلوا لله أندادًا، والأنداد: جمع ند: وهو النظير والمثيل والشبيه، ما قد سبق لأجل هذا، قال ابن كثير –أحد أئمة التفسير–، وهو عماد الدين ابن عمر القرشي الدمشقي من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميه، مفسر محدث فقيه قال:"الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة"، فهذه من طرق القران الواضحة الملزمة للمخالف، وهو إثبات توحيد العبادة بالإقرار بتوحيد الربوبية

.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أنواع العبادة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

📖 **قال المؤلف –رحمه الله–: وأنواعُ العبادةِ التي أَمَرَ اللهُ بها: مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ؛ ومنهُ الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنذرُ.**

قال الشيخ: **وأنواعُ العبادةِ التي أَمَرَ اللهُ بها: مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ.** الدين يشمل هذه المراتب الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان، وسوف يأتي – إن شاء الله تعالى– فيما نستقبل من كلام المصنف مزيد بيان لهذه الألفاظ الشريفة، وبيان العلاقة بينها من عموم وخصوص، لكن الشيخ –رحمه الله– ذكر بعض أنواع العبادة فقال: **ومنهُ الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنذرُ:** عد الشيخ –رحمه الله– أربعة عشر نوعًا، معظمها عبادات قلبية، لأن العبادات القلبية أشرف أنواع العبادات على الإطلاق، فأن القلب ملك الجسد والأعضاء له جنود، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً– أ ي بقدر ما يمضغ الماضغ؛ صغيرة بحجم قطعة اللحم – إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)[1]، فالقلب هو بيت الرب في العبد كما أن الكعبة هي بيت الرب في الأرض، فالقلب أشرف ما فيه، فينبغي أن يحتوي أشرف ما عنده، وأشرف ما يمكن أن يكون عند العبد: هو العلم بالله بمقتضى أسمائه وصفاته، وأن يتحرك هذا القلب لأداء وظيفته التي خلقها الله له، فللقلب وظيفتان:

- **وظيفة حسية مادية:** وهي ضخ الدم إلى الأعضاء، كما أن وظيفة العين الإبصار، ووظيفة الأذن السمع، ووظيفة اليد التناول، ووظيفة القدم السعي.
- **وظيفة المعنوية:** هي العلم بالله، ومعرفته ومحبته وخشيته والتوكل عليه والرغبة إليه، فلهذا كان الموفق من عباد الله من يجعل قلبه مستودعًا لهذه المعاني الشريفة، فإذا كان لديك في منزلك جواهر ولآلئ ووثائق وأشياء كريمة فإنك تضعها في أشرف وأوثق موضع في البيت، لا تضعها في الفناء أو بيت الخلاء، فلا يليق بك أيها المؤمن أن تجعل قلبك مستودعًا للجهالات والشهوات والشبهات و الغفلات والحقد والغل. كم من القلوب ما يسرح فيه الشيطان جيئة وذهابًا، ويكون وقودًا للحقد والغل وسوء الظن؟!، أعمر قلبك بما خلقه الله من أجله من العلم به ومحبته وخشيته، فتلك هي العبادة الحقيقية. فإذا أحسن قلبك أداء وظيفته انقادت له الجوارح، وخفت إلى الطاعات، وهان عليها مفارقة الشهوات، وأحست بطعم الحياة ووجدت معناها الحقيقي. ولهذا كان الصالحون من عباد الله

(١) صحيح البخاري (٥٢)، صحيح مسلم(١٥٩٩).

يعتنون بقلوبهم قبل عنايتهم بأعمالهم، يصلحون قلوبهم: أولًا بالعلم النافع حتى تكون ناصعة نقية لا يكون لله تعالى شرك فيها، ثم يتبعونها بالعمل الصالح ثانيًا، فإليكم هذه المعاني العظيمة التي عد الشيخ -رحمه الله- سيذكرها واحدة واحدة.

قال: وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾: ابتدأ الشيخ -رحمه الله- بأجل هذه العبادات وأبينها في الدلالة على العبودية ألا وهو الدعاء، فقرأ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، المساجد تطلق على مواضع السجود وعلى آلة السجود التي هي أعضاء السجود، فمواضع السجود كهذا المكان الرحب الطيب الذي نحن فيه، وتطلق أيضًا على، الأعضاء السبعة التي يسجد عليها المؤمن.

وعبر بالسجود عن بقية الصلاة؛ لأنه من أشرف أركانها، ولما كان شريفًا معبرًا عن كمال العبودية لله، كان هو الموضع المناسب لدعاء رب العالمين، فأقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد، حيث يضع الإنسان أشرف ما فيه على الأرض خضعانا لله عز وجل؛ ففي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَلاَ وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)[1]، قمن: يعني حري أن يستجاب لكم، فلهذا قال: **{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا } [الجن: ١٨]**، فيجب أن يصرف الدعاء لله وحده، فمن دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد تلطخ بالشرك الأعظم المخرج عن الملة.

الدليل الثاني: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } [المؤمنون: ١١٧]: **(إلهًا)** نكرة في سياق الشرط، والقاعدة: **"أن النكرة إذا جاءت في سياق الشرط فإنها تدل على العموم"**، أي: أي إله، وإطلاق الإله على ما سوى الله عز وجل من باب حكاية الحال والواقع، وإلا فإنه لا يستحق الألوهية إلا الله وحده: { أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا } [الأنبياء: ٤٣] سماها الله آلهة، لكنها آلهة بغير حق، فالإله بحق: هو الله وحده، **{لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ}**: هذه الجملة تسمى عند العلماء "صفة كاشفة"، وليست قيدًا، فليس المراد أن نوعًا من الآلهة عليه برهان، ونوعًا من الآلهة ليس عليه برهان! كلا يوجد برهان على ألوهية إله سوى الله عز وجل.

قال: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾: هذه الجملة منطوية على معنى التهديد والوعيد، بدليل قوله: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}، والفلاح هو: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب. لذا قال الله عز وجل: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}: لأن مآل الكافر إلى خسر، مآله أن يكون في الدرك الأسفل من النار، فدلت هاتان الآيتان على وجوب توحيد الله تعالى بالدعاء وعدم صرفه لغير الله تعالى.

وثنى الشيخ بذكر دليل من السنة، وهو الحديث المروي:(الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ)[2]، والواقع أن هذا الحديث فيه ضعف، وأصح منه إسنادًا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)[1]، وأما حديث: (الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ)، الذي

(١) صحيح مسلم (٤٧٩).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٧١) ضعفه الألباني ضعيف الجامع الصغير(٣٠٠٣).

رواه الترمذي وغيره فقد استغربه الترمذي، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه"(٢)، ويغني عنه بحمد الله قول الله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: ٦٠]، فسمى الله تعالى الدعاء عبادة، فلم يقل: إن الذين يستكبرون عن دعائي؛ فدل ذلك على أن الدعاء هو العبادة، بل أنه في الحقيقية لب العبادة، وذلك أن حال الدعاء يدل على افتقار العبد إلى خالقه واطراحه بين يديه وشعوره بكمال غنى الله تعالى وافتقاره واضطراره إليه؛ فلأجل ذا كان الدعاء هو العبادة، وكان صرف الدعاء لغير الله شركًا أعظم، فإذا رأيت من يدعو غير الله فاعلم أن قلبه معطوب، ما الذي حمل هذا الإنسان أن يدع الله الذي بيده الضر والنفع والمنع والإعطاء والعز والذل والغنى والفقر والصحة والمرض ويلتفت إلى غيره؟! لا شك أن هذا خلل عظيم وداء وبيل. وللأسف فإن الشيطان قد أضل فئامًا من بني آدم فحملهم على دعاء غير الله، وزين لهم ذلك؛ فصاروا يتخذون الأصنام على هيئات متنوعة، ويزعمون أنها وسائط بينهم وبين الله عز وجل، وأول ما ظهر ذلك في قوم نوح، فإن قوم نوح كانوا فيما مضى على التوحيد، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون، وخلال هذه القرون المتطاولة زين الشيطان لهم تعظيم الصالحين من المتقدمين؛ ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرًا، وقال للناس: هؤلاء لهم جاه عند الله ومنزلة فلو أنكم ذهبتم إلى المواضع التي كانوا يجلسون فيها ونصبتم فيها أنصابًا حتى إذا رأيتموها ذكرتموهم فنشطكم ذلك على العبادة، وهذا مدخل لطيف فإن الشيطان لا يأتي الناس مباشرة، قائلاً: أشركوا بالله!، وإنما يتلطف في تسويق باطله؛ فلما أندرس ذلك الجيل وجاء جيل بعده أتى الشيطان إليهم، وقال: هؤلاء لهم جاه عند الله فادعوهم لكي يتحقق ما تريدون، فدعوهم من دون الله فوقعوا في الشرك الأعظم، فبعث الله نوحًا عليه السلام لردهم إلى التوحيد، ثم إن هذه الأصنام بعدما طمرها الطوفان، عاود الشيطان الكَرة، فأتى عمرو بن لحي الخزاعي – أول من أدخل الشرك في العرب– في المنام وقال له : ائت جُدة تجد أصنامًا معدة، وادع إليها العرب تجب، فذهب إلى الموضع الذي ذكر، وكشف عن هذه الأصنام وبثها في الناس، فعاد الناس إلى عبادة غير الله عز وجل.

الدعاء من أعظم مراتب العبادة: فيجب أن يخلص العبد دعاءه لله رب العالمين، وألا يلتفت إلى غير الله، **لكن ينبغي أن نعلم أن الدعاء الذي هو فيصل التفرقة بين التوحيد وبين الشرك**: هو أن يدعو العبد ربه فيما لا يقدر عليه إلا هو، فإن صرفه لله؛ فقد سلم من الشرك، وإن دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد وقع في الشرك الأعظم الذي لا يغفره الله، كأن يدعو ميتًا أو يدعو غائبًا أو يدعو حاضرًا فيما لا يقدر عليه، **هذه ثلاثة أنواع:**

- **النوع الأول**: أن يدعو ميتًا، {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ } [فاطر: ١٤].
- **النوع الثاني**: أن يدعو غائبًا غير موجود، لا يسمع دعاءه، لأنه بمعنى الأول.

(١) سنن أبي داود (١٤١٨)، سنن الترمذي (٢٩٦٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧).

(٢) سنن الترمذي (٥/٤٥٦).

- **النوع الثالث**: أن يدعو حاضرًا لكن ليس من شأنه ذلك ،كأن يقول له: يا فلان ارزقني، يا فلان اشفني، فهو لا يملك ذلك، قال تعالى {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ} [العنكبوت: ١٧]، وقال {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ١٧].

فهذه الصور الثلاث صور مخرجة من التوحيد مدخلة في الشرك، أما إن دعا غير الله فيما يقدر عليه ذلك الغير؛ فهذا ليس بشرك، فإذا دعا واحدًا من الناس في أمر من الأمور التي يقدر عليها فلا حرج كما، لو قال لرجل بين يديه طعام: يا فلان أطعمني لم يكن شركًا.

والدعاء نوعان: النوع الأول دعاء المسألة: وهو طلب حصول الحاجات، وتحقيق الرغبات، فهذا كثير في بني آدم أن يدعو الإنسان بالرزق، بالصحة، بالذرية، بالرفعة.

النوع الثاني: دعاء العبادة، وهو أن يتقرب لله عز وجل بما أوجب عليه من الطاعات، يرجو بذلك ثوابه ويخشى عقابه، أو أن يتملق إلهه و معبوده بحمده وبالثناء عليه.

الصورة الأولى: أن يمتثل أمر الله ويجتنب نهيه مستصحبًا أنه يرجو بذلك أن يبلغه جنته، أو أن يصرف عنه عذابه، أو أن يصلح حاله ويدفع عنه السوء، فهذا وإن لم يدعُ بمسألة فهو في دعاء عبادة ؛ لأنه يعلم أن الله تعالى نصب هذه العبادات سببًا موصلًا إلى الحياة الطيبة في الدنيا وإلى الفوز بالجنة في الآخرة، فسلك هذه الأسباب.

الصورة الثانية: أن يُثني على الله تعالى بما هو أهله من صفات الكمال ونعوت الجلال كما كان النبي صلى الله عليه وسلميقوم في صلاة الليل فيقول: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ)(١)، يناجي ربه، ويثني عليه بما هو أهله: هذا دعاء عبادة وقد قال ربنا سبحانه وتعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } [الأعراف: ١٨٠]، وينبغي للداعي أن يدعو الله تعالى بالاسم المناسب للطلب، فإذا كنت تريد من الله تعالى أن يعفو عنك، فلا يستقيم أن تقول: يا ذا البطش الشديد اعف عني؟ ولكن قل: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفو عني، وإذا أردت من الله الرزق، تقول: يا رزاق ارزقني، وهكذا فاختر الاسم المناسب للطلب المناسب، وقد أنعم الله علينا بتسعة وتسعين اسمًا يمكن إدراكها واستخلاصها من نصوص الكتاب والسنة لكي ندعو الله تعالى بها، فالدعاء عبادة من أجل العبادات لمن تذوقه ووفق إليه حتى أن من يدعو الله عز وجل من العارفين بالله عز وجل؛ يجد لذة ونعيمًا في مناجاة ربه في الأسحار وفي السجدات، ويتبين لنا سوء حال كثير من الناس الذين ابتلوا بدعاء غير الله، حيث زين لهم الشيطان عن طريق مشايخ السوء وسدنة الأموات المنتفعين بها أن ينصبوا القباب والمشاهد على هذه

(١) صحيح البخاري (٦٣١٧)، صحيح مسلم (٧٦٩).

القبور، ويغروا بهؤلاء العوام بدعائها وترك دعاء الله عز وجل، وقد قال صلى الله عليه وسلم (لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ)[1].

وأنه ما من عبد يدعو الله في الأرض دعوة إلا أعطاه بها أحد ثلاث خصال:

- إما أن يعجل له دعوته.
- وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها.
- وإما أن يدخرها له أحوج ما يكون إليها. فلا يضيع على الله دعاء.

وقد قيل : اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

الآدمي إذا دعوته مرة مرتين تبرم منك وتضايق، (من لم يدع الله يغضب عليه)[2].

الخوف ...التوكل

قال المؤلف –رحمه الله–: ودليلُ الخوفِ قوله تعالى :﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

(الخوف): توقع مكروه عن إمارة أو علامة مظنونة أو معلومة، وضد الخوف: الأمن، والخوف عبادة، والدليل على أن الخوف عبادة –ما استدل به الشيخ رحمه الله– وهو قول الله عز وجل {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: ١٧٥] ، فقد جعل ذلك شرطًا في الإيمان، وأول هذه الآية {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} [آل عمران: ١٧٥]، ومعنى {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}: أي يخوفكم بأوليائه.

والخوف أنواع:

النوع الأول: الخوف الطبيعي: هو ما جبل الله تعالى عليه الآدميين من الخوف من الأمور الضارة: كالخوف من السبع والحية والنار والعدو؛ وهو يقع لكل الناس، حتى أن موسى عليه السلام لما ألقى العصا وانقلبت ثعبانًا {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ} [القصص: ٣١] ، فهذا خوف طبيعي ركبه الله تعالى في بنية ابن آدم لدوام سلامته وحفظ الجنس الإنساني، ولو لم يكن عند الإنسان خوف لهلك الناس منذ القدم ؛ لأن الخوف يحمل ابن آدم توفي ما يضره ، وهذا نوع مباح لا يلام عليه صاحبه.

- **النوع الثاني: الخوف المحرم:** وهو ما منعك من فعل واجب، أو حملك على الوقوع في محرم؛ فهذا الخوف خوف محرم لكنه لا يبلغ مبلغ الشرك، مثال: وجب الجهاد على المسلمين واستنفرهم الإمام وقد قال النبي صلى الله عليه

(١) المسند (٨٧٤٨)، المستدرك للحاكم(١٨٠١)، صحيح ابن حبان(٨٧٠)، حسنه الألباني في الأدب المفرد (٧١٢).

(٢) الأدب المفرد (٦٥٨) حسنه الألباني السلسة الصحيحة (٢٦٥٤).

وسلم: (وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا)[1]، فمنع الخوف بعض آحاد المسلمين من القيام بهذا الواجب فهذا الخوف مذموم؛ لأنه حال بينه وبين فعل ما أوجب الله تعالى عليه؛ ولهذا حذر الله عباده وقال { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: ١٤] لما قعدوا عن الجهاد خوفًا على وأزواجهم وأولادهم.

- **النوع الثالث خوف العبادة ويسمى أيضًا خوف السر**؛ لأن محله القلب لا يطلع عليه إلا العليم بالأسرار، وهو أن يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فمن وقع منه ذلك؛ فقد وقع في الشرك الأعظم، كأن يخاف من جن أو مخلوق أو غير ذلك أن يصيبه بشئ لا يملكه ولا يستطيعه؛ فهذا الخوف خوف ينافي التوحيد؛ فلا يجوز صرفه لغير الله عز وجل. ويجب على الإنسان أن يعلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يصرف السيئات إلا الله عز وجل، فمن خاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد أشرك.

قال ابن رجب –رحمه الله– "القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم؛ فإن زاد على ذلك؛ بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات؛ كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد على ذلك؛ بأن أورث مرضًا أو موتًا أو وهمًا لازمًا؛ بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل؛ لم يكن محمودًا"[2]، فالخوف المطلوب هو الخوف المحمود، الذي يحجزك عن محارم الله؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله، فما زاد فلا حاجة لك به"[3] وبيان ذلك أنك تحتاج حصة من الخوف في قلبك تكون رادعًا لك عن غشيان الحرام، فإذا تحقق ذلك فحسن فإن زاد قليلًا وحملك على مزيد توق من المشتبهات والمكروهات، فهذا نور على نور، لكن إن تزايد ذلك الخوف بحيث أفسد عليك عيشك، وأقض مضجعك، وصرت لا تهنأ بعيش؛ فعليك أن تتخفف منه؛ لأنه ليس من هدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل الواقع هو حالة نفسيه غير مرادة شرعا، فبعض الناس الذين يدمنون قراءة المواعظ والزواجر ربما يتضاعف عندهم هذا الشعور حتى يسبب لهم قلقًا وأرقا وبلبلة وتشويشًا إلى درجة أنه يعطل عليهم مصالحهم الدينية والدنيوية؛ فلا يهنأ بعيش.

ونبينا صلى الله عليه وسلم– وهو سيد الخائفينو بأبي هو وأمي، صلى الله عليه وسلم– كان أطيب الناس عيشًا وأهنأهم مجلسًا.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: ودليلُ الرَّجاءِ قوله تعالى :﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**: حقيقة الرجاء: أنه ظن وانفعال يقوم في القلب يقتضي حصول مافيه مسرة، فالرجاء هو الأمل: أن يأمل الإنسان حصول شيء محبوب، والرجاء عبادة، والدليل على كون الرجاء عبادة قول الله عز وجل: {

(١) صحيح البخاري (١٨٣٤).

(٢) التخويف من النار لابن رجب (٣٤) مكتبة دار البيان.

(٣) مدارج السالكين (١/٥١٤).

فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]، وقوله {فَلْيَعْمَلْ}: يدل على أن الرجاء الصادق ليس بالأماني لا بد من العمل.

والعمل الصالح ما جمع وصفين:

- **الوصف الأول**: الإخلاص لله.
- **الوصف الثاني**: المتابعة لرسول الله.

قال: {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }: فدل على أن رجاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك.

والرجاء نوعان: رجاء عبادة ورجاء مباح:

- **فرجاء العبادة** لا يجوز صرفه لغير الله، لأنه رجاء السر؛ وهو أن يتعلق القلب بالمرجو في حصول منفعة أو دفع مضرة:

فإن كان ذلك الأمر لا يقدر عليه إلا الله؛ فلا يجوز صرفه لغير الله.

أما إن كان ذلك الأمر مما يقدر عليه الغير فلا حرج فيه، ولا بأس بأن يطلب من الغير فإذا قلت لصاحبك: أرجوك أعطني الكتاب، هذا ليس رجاءًا شركيًا، وأهل التحقيق وأهل التوحيد البالغ يفحصون رجاءهم حتى إذا طلبوا من غير الله عز وجل أمرًا ليتحقق على أيديهم لم يفارقهم شعور بأن مسبب الأسباب هو الله عز وجل، فإذا ذهب مثلًا إلى طبيب، لا يجد قلبه معلقًا بشخص هذا الطبيب، وإنما يقوم في قلبه أنه سبب ساقه الله تعالى إليه وربما أجرى الشفاء على يديه، فقلبه في الحقيقة يستقبل ربه ولكنه لا يبطل الأسباب، بل يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب، لا يلغي السبب لكنه لا يغفل عن المسبب، قال ابن القيم رحمه الله: "الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويُطيب لها السير"(١). وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب سبحانه وتعالى وقد قيل شعرًا :

لولا التعلق بالرجاء تقطعت نفس المحب تحسرًا وتمزقًا

لولا الرجا يحدو المطي لما سرت بحمولها لديارهم ترجو اللقا

۞ الفرق بين الرجاء وبين الأماني-: أن الأماني بضاعة البطال، {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } [النساء: ١٢٣] والرجاء مقرون بعمل، {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ } [الكهف: ١١٠] ، أما الأماني فإنها تشوفات وتطلعات غير مقرونة بعمل، فلا يلبث أن يرى أن بساط العمر قد طوي و لم يخرج بطائل، فإياك أن تقع في هذا المزلق – مزلق الأماني-؛ فإنه لا يوصلك إلى مقصودك. فهاتان عبادتين متقابلتين، الخوف والرجاء،

(١) مدارج السالكين (٣٥/٢) الكتاب العربي.

وهذا من بديع دين الله: أن الله سبحانه وتعالى يضبط النفس الإنسانية في معادلة دقيقة بحيث أن القلب يجري في هـذا المضمار بين قطبي الخوف والرجاء، فالعبد يخاف من الله تعالى خوفًا يحجزه عن معاصيه، ويتعلق بربه تعلقًا يحفزه على طاعته، ويصبح القلب متوازنًا بين هذين، فإذا أقبلت نفسه على الدنيا واستشرفت مباهجها وفتنها؛ جاء الخوف فضربه بسوط لاذع وقال: الجادة الزم الطريق! وإذا ادلهمت الخطوب وضاقت به السبل ووقع في المضائق؛ جاء نسيم الرجاء فنفس عنه. وعلقه بربه وبفرجه؛ فتنفس الصعداء وتفتحت الآمال، كل هذا من بأثر هاتين العبادتين الجليلتين.

وقد صور العلماء الخوف والرجاء كجناحي الطائر؛ لو كان أحد الجناحين أكبر من الآخر لجنح في طيرانه، فينبغي أن يكون الحال الغالب على الإنسان تساوي الخوف والرجاء كما قال ربنا عز وجل: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الإسراء: ٥٧].

هناك عبادة ثالثة في الحقيقة هذا موضعها ومحلها، لم يذكرها الشيخ، ولعل هذا فوات حرص وهي من أشرف العبادات القلبية ألا وهي المحبة لأن أمهات العبادات القلبية ثلاث: المحبة والخوف والرجاء، وأصل هذه الأنواع الثلاثة وأشـرفها المحبة، فالمحبة أعظم من الخوف والرجاء ؛ لأن الخوف والرجاء ينقطعان ببلوغ الجنة: {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الزخرف: ٦٨] أما المحبة فلا تنقطع، محبة المؤمن لربه باقية في الدنيا وتتضاعف في الآخرة، ودليلها قول الله عز وجل: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقـرة: ١٦٥]؛ فمحبة الله عز وجل أشرف أنواع العبادة، وقد جاء في الحديث: [أحبوا الله من كل قلوبكم].

المحبة كذلك أنواع:

- **النوع الأول المحبة الطبيعية غريزية مباحة:** كمحبة الطعام والشراب والولد والوالد والزوجة والزوج وغير ذلك، لا يلام عليها صاحبها.
- **النوع الثاني المحبة المحرمة:** وهي أن تحمله المحبة والتعلق إلى الوقوع فيما حرم الله، كما لو أحب شرب الخمر.

النوع الثالث محبة العبادة وهي محبة السر: فهذه لا يجوز أن تصرف لغير الله، فمن أحب غير الله المحبة التي لا تنبغي إلا لله؛ فقد وقع في الشرك الأعظم {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقرة: ١٦٥] ، ومن رُزِق هذه العبادة، صارت جميع المحاب، وجميع الملذات تندرج تحت محبة الله عز وجـل؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْـرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِى النَّارِ)[1]، وبهذا تكتمل الحلق الثلاث: المحبة والخوف والرجاء؛ وإن مما يؤسف له أن الصـوفية اختطفـوا الحديث في هذه الأمور ، مع أن الأحق بها والأولى هم أهل العلم النبوي الموروث عن محمد -صلى الله عليه وسـلم- ولأجل ذا ينبغي لطلبة العلم أن يكون لهم مزيد عناية في الكلام عن المقامات القلبية وسياقها سياقًا إيمانيًا خليًا مما أحدثه

(١) صحيح مسلم(٤٣).

المبتدعة من الكلام المزخرف الذي يشينها ولا يزينها، ودرج العلماء على تسمية الكلام فيها باسم السلوك، وأحد مجلدات مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية عنوانه: "السلوك"، ومن أحسن ما يرجع إليه في هذا الباب كتاب "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، وإن كان مؤلف الأصل شيخ الإسلام الهروي –رحمه الله– قد شابه لوثة صوفية إلا أن ابن القيم –رحمه الله– لما شرح ذلك المتن شرحه شرحًا سلفيًا قائمًا على أدلة الكتاب والسنة مدعمًا بالآثار الصالحة عن السلف الصالح موجهًا للعبارات الموهمة والمجملة التي يتناقلها أصحاب الطرق عن بعض من يعظمونهم فحملها على المحمل الحسن، فينبغي لطالب العلم أن يكون له عناية بهذه الأمور كي يصلح قلبه ويصلح غيره، وقد صور بعض العلماء هذه الثلاث بالمركبة يستقلها الإنسان، فالمركبة هي المحبة، والقائد الذي يقودها هو الرجاء، والذي يحجزها عن الحيدة يمنة ويسرة هو الخوف".

قال المؤلف –رحمه الله–: ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾:

حقيقة التوكل اعتماد القلب على الله عز وجل في حصول المطلوب، ودفع المرهوب مع فعل الأسباب الموصلة إلى ذلك، فالقلب قلب يركن إلى ركن شديد: وهو الله عز وجل، لا بمجرد الكلام بل يتضح في المواقف، فيتبين من المتوكل على الله حقًا ممن يتوكل باللسان، إذا ادلهمت الخطوب وضاقت السبل وغلقت الأبواب؛ حينئذٍ يهرب القلب ويتلفت يمنة ويسرة، فمن كان فزعه إلى الله معتقدًا بأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يدفع السيئات إلا الله عز وجل، و لم يمنعه شعوره ذلك من اتخاذ الأسباب التي نصبها الله أسبابًا؛ فهذا المتوكل حقًا، وأما من اتكأ على أريكته وقال: أنا متوكل، و لم يفعل سببًا؛ فهذا متواكل وليس متوكلًا، فلا بد في التوكل من فعل الأسباب.

استدل الشيخ –رحمه الله– على إثبات عبادة التوكل بقول الله تعالى: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**، هكذا جاء فيما خاطب به موسى عليه السلام بني اسرائيل حينما قالوا: {أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} [الأعراف: ١٢٩] فوعظهم وكان في موعظته: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** فدل ذلك على أن التوكل شرط في الإيمان، وكذلك قول الله تعالى على سبيل الإطلاق: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق: ٣] ومعنى حسبه ؟ أي كافيه، من: أداة شرط، يتوكل: فعل الشرط، جواب الشرط وجزاؤه: جملة فهو حسبه، وهذا ضمان من رب العالمين.

وهذه الآية جاءت عند ذكر الرزق حيث قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٢، ٣] ما أحوجنا إلى التوكل ما أحوجنا إلى استحياء هذه المعاني في قلوبنا لماذا نقلق؟ لماذا نأرق؟ لماذا يلحقنا الهم والغم؟ بسبب ذهاب النفس حسرات وراء الأسباب الدنيوية، لكن لو كان العبد مملوء القلب بهذه المعاني؛ لاستقر قلبه وسكن باله و لم ينشأ عنده ما يدعوه إلى القلق.

- **والتوكل عبادة**؛ لا يجوز صرفه لغير الله؛ فلا يجوز للعبد أن يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فلو قال عبد لشخص: توكلت عليك في شفائي أو توكلت عليك في رزقي؛ فقد وقع في الشرك الأعظم الذي لا يغفره الله عز وجل.
- **وأما التوكيل فهو مباح؛ فهو ما يُعرف عند الفقهاء "بالوكالة الشرعية"**: بأن يذهب الإنسان إلى كتابة العدل ويقول: وكلت فلانًا ببيع بيتي أو في شراء كذا أو كذا؛ فهذا لا حرج فيه، وقد وكَّل النبي صلى الله عليه وسلم عددًا من أصحابه في بعض الأمور، ولم يزل الناس هكذا:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض، وإن لم يشعروا خدم

فالناس يقضي بعضهم مصالح بعض بالوكالة، فهذه الوكالة لا حرج فيها ونقول أيضًا: أنه ينبغي لمن وكل غيره بوكالة أن يستصحب في قلبه أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يبلغه مقصوده، وأنه ليس الوكيل الفلاني هو الحاذق البارع الذي يمكن أن يتم عليه المطلوب، بل يرى أن هذا سبب نصبه الله تعالى يمكنه من بلوغ مراده.

الرغبة – الاستعانة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

📖 **قال المؤلف –رحمه الله–: وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٠].**

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...﴾ الآية [البقرة: ١٥٠].

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...﴾ الآية [الزمر: ٥٤].

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: (... وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ).

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]. وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

الشرح:

ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهبَةِ والخُشوعِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

هذه ثلاث عبادات قلبية، **والمقصود بالرغبة**: الميل للوصول إلى المقصود.

وأما الرهبة: فإنها نوع من الخوف لكنه ربما كان خوفًا يقترن به عمل.

وأما الخشوع: فهو الخضوع والخراعة والهبوط كما قال الله –عز وجل– {تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً } [فصلت: ٣٩]، أي مطمئنة وهامدة وساكنة {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [فصلت: ٣٩]، فالمقصود بالخشوع الذل والتطامن،

والخشوع الشرعي: هو الذل والتطامن لله -عز وجل- فلذلك كان عبادة، وقد جمع هذه المقامات الثلاث قول الله -عز وجل- عن جملة من أنبيائه من المصطفين الأخيار الذين ذكرهم الله-سبحانه وتعالى- في سورة الأنبياء :{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠]. وقال تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠] ، هؤلاء هم المثل، هم النماذج، هم الأسوة الحسنة التي ينبغي للبشرية أن تنسج على منوالها؛ لا أن يُعظم بعض القاصرين الناقصين ويمجدون ويوصفون بالكملة، الكملة حقًا من عباد الله هم أنبياء الله تعالى ومن سار على طريقهم، ولهذا قال تعالى: :{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} [الأنبياء:٩٠]، أي أنهم لا يقتصرون على فعل الخيرات بل فوق ذلك يسارعون فيها، وذلك أن الإيمان إذا حل في القلب كان كالوقود الباعث الذي يدفع صاحبه حثيثًا للوصول إلى مقصوده؛ فلذا تجد أهل الإيمان يحفزهم باعث قوي، كما في قصة الرجل المؤمن فقال: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى} [يس: ٢٠] ، هذا السعي نابع من امتلائه بالإيمان، فتجده حيًّا يقظًا متحركًا بسبب هذه الجذوة التي تعتمل في داخله.

والمؤمن يكون في حال بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة، {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } [الأعراف: ٥٥] {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا } [الأعراف: ٥٦]، هذه حقيقة الإيمان؛ فالخوف والرجاء والرغبة والرهبة يضاف إليهما المحبة هي أسباب صلاح القلب، ولا يجوز الاقتصار على أحدها وترك الباقي؛ فإن بعض من يدعون السلوك يختاروا خصلة واحدة ويدع ما سواها، فتجد مثلًا من يعبد الله بالخوف وحده، وتجد من يعبد الله بالرجاء وحده، وتجد من يعبد الله بالحب وحده، قال أهل العلم : "من عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو المؤمن الموحد".

- فهناك من يعبد الله بالخوف وحده وهذا **حال الحرورية الخوارج** الذين لا يقرؤون إلا نصوص الوعيد ويحجرون رحمة الله تعالى.
- وبإزائهم **المرجئة**: الذين يوسعون دائرة الرجاء والأماني ويتعلقون بنصوص الرجاء ويغضون الطرف عن نصوص الخوف.
- وهناك طائفة ثالثة وهم: **"غلاة الصوفية"** الذين يعبدون الله بالحب وحده، ويدعون ما سواه حتى إن قائلهم يقول: "ما عبدتك طلبًا لجنتك ولا خوفًا من نارك إنما عبدتك محبة لك"، كما قال إمامهم وكبيرهم ابن عربي الطائي الأندلسي:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني.

يا سبحان الله إذا كان الخلص من عباد الله يرجون رحمة الله ويخافون عذابه فمن أنت حتى تقول أنا تجاوزت هذا الحد وصرت لا أعبدك لا خوفًا ولا رجاءً،عبدتك بالحب وحده! هذه زندقة.

أما عبادة سيد المرسلين وإمام المتعبدين محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم-: فإنه يعبد الله بالحب والخوف والرجاء وسائر أحوال القلوب.

قال: وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...﴾ الآية [البقرة: ١٥٠].

الخشية: نوع من الخوف لكنها أخص منه، وذلك أن الخشية خوف مقرون بعلم، فهي نابعة عن علم بالمخوف، قال الله تعالى: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] ، فخشية العلماء لله تعالى مبنية على علمهم بمقتضى أسمائه وصفاته؛ فلذلك كانت خشية مبصرة، وهذا أعلى وأجل، والخوف من المقامات الإيمانية.

والفرق بين الخوف والخشية من جهتين:

الفرق الأول: أن الخشية أخص من الخوف لأنها خوف مقرون بعلم.

الفرق الثاني أن يقال: أن الخشية مبنية على عظم المخشي والخوف مبني على ضعف في الخائف، أيًا كان فقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بالخوف والخشية فقال سبحانه أو أمر الله عباده المؤمنين فقال:{ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي... } الآية [البقرة: ١٥٠]. ، فيجب صرف الخشية لله -سبحانه وتعالى- وعدم صرفها لغيره، والمقصود بذلك خشية السر: أي خشية العبادة.

قال: وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...﴾ الآية [الزمر: ٥٤].

الإنابة: المقصود بها الرجوع والعود، استدل بقول الله تعالى: { وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...} [الزمر: ٥٤]، أي أقبلوا على ربكم بالتوبة وراجعوه بالطاعة، وأسلموا له: أي اخضعوا له وذلك أن الإسلام نوعان: إسلام كوني وإسلام شرعي:

- **أما الإسلام الكوني:** فإنه يشمل جميع الخلائق كما قال الله سبحانه وتعالى: { وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: ٨٣] ، فهذا الإسلام لا يخرج عنه أحد، فما من ذرة من ذرات الكون إلا وهي خاضعة لرب العالمين مستسلمة منقادة له، لا يخرج عن ذلك أحد حتى الكافر هو مسلم بهذا الاعتبار؛ لأنه منقاد خاضع لقدر الله الكوني، لا انفكاك له عما يُجريه الله تعالى عليه من أقدار، هذا هو النوع الأول وهو الإسلام الكوني.
- **أما الإسلام الشرعي:** فهو الإسلام الطوعي الاختياري الذي يفعله المرء بمحض اختياره وسبق اصراره، فيمتثل الأوامر ويجتنب النواهي، وهذا هو إسلام المؤمنين، ويتفاوت أهل الإيمان في درجات هذا الإسلام:

فمنهم من يكمل استسلامه لله فلا يعصي الله تعالى في شيء، ومنهم من يثلم إسلامه بنوع معصية لكنه في الأعم الأغلب يكون من جملة المسلمين.

وإنما يُحمد صاحبه الإسلام؟ الشرعي لأن الكوني ليس للإنسان فيه دور ولا أثر.

فقال: وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: (... وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ).

الاستعانة: هي طلب العون، والمرء ضعيف بطبعه {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } [النساء: ٢٨] فلا غنى له عن مدد خارجي، وهو يحتاج إلى هذه المعونة في أموره الدينية وفي أموره الدنيوية، إذ لا قيام له بنفسه بل لا بد له من مقيم، ولذلك كانت الاستعانة عبادة كما قال الله تعالى: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة: ٥] حتى العبادة لا بد فيها من معونة الله -عز وجل- وقد قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في وصيته الرقيقة لمعاذ بن جبل: (يا معاذ و الله إني لأحبك فقال معاذ : بأبي و أمي يا رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ و أنا و الله أحبك فقال : أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك و شكرك و حسن عبادتك)[1]، فلا غنى لك أيها المؤمن عن الاستعانة بمعبودك للوصول إلى مقصودك، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضًا: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ)[2]، فالاستعانة عبادة؛ ولما كانت عبادة لم يجز صرفها لغير الله -عز وجل-، فمن استعان بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد وقع في الشرك الأكبر، أما من استعان بغير الله في أمر يقدر عليه ذلك الغير؛ فذلك ليس شركًا كما تقول لصاحبك مثلًا: أعني على حمل متاعي، أعني على ركوب دابتي، أعني على إتمام هذا البحث، أما من استعان بغير الله في أمر لا يقدر عليه إلا الله أو استعان بذلك الغير فيما لا يقدر عليه ذلك الغير: كأن يستعين بميت مقبور، أو يستعين بشخص غائب فهذا هو الشرك الأعظم الذي يخرج صاحبه من الملة، **وأما ما سوى ذلك فهو ما بين محمود ومذموم ومباح:**

- فالمحمود منه: التعاون على البر والتقوى كما قال الله تعالى: **{وتعاونوا على البر والتقوى}**، فهذه الاستعانة استعانة محمودة.
- والمذموم منه: ما كان تعاونًا على معصية الله كأن يستعين بصاحبه على تهيئة أمر محرم، فهذا محرم لكن لا يبلغ مبلغ الشرك.
- والمباح منه: ما جرت به عادة الناس من تخادمهم فيما بينهم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) المستدرك (١٠١٠)، صححه الألباني (٧٩٦٩) في الصحيحة.

(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

الاستعاذة – النذر

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]. وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾ الآية[الأنفال:9].

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣]. وَمِنَ السُّنَّةِ: (لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله).

وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

الشرح:

قال: وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١] وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

الاستعاذة عبادة لله سبحانه وتعالى، وحقيقة الاستعاذة: طلب العوذ، والمقصود بالعوذ: الاعتصام والالتجاء بالمعوذ به، ولما قالت امرأة دخل عليها النبي –صلى الله عليه وسلم– وهي ابنة الجون قالت : أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ فَقَالَ: (لَهَا لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ الْحَقِي بِأَهْلِكِ)[1]، وهي عبادة؛ لأن الله تعالى أمر بها عباده فقال: { **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** } { **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** }، وقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، وَأُحَاذِرُ)[2]، وقال: (وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي)[3]، إلى غير ذلك من نصوص الاستعاذة الكثيرة، (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)[4]، فالعوذ الشرعية كثيرة جدًا؛ فيجب صرفها لله –عز وجل– والاستعاذة التي تكون عبادة: هي التي لا تطلب إلا من الله –عز وجل– فمن طلبها من غير الله فقد وقع في الشرك الأكبر، كمن استعاذ بمخلوق فيما لا يقدر عليه ذلك المخلوق، أما من استعاذ بمخلوق في

(١) صحيح البخاري (٥٢٥٤).

(٢) سنن أبي داود(٣٨٩١)، سنن الترمذي(٣٥٨٨)، سنن ابن ماجه واللفظ له(٣٥٢٢)، صححه الألباني في السلسة الصحيحة (١٤١٥).

(٣) سنن أبي داود(٥٠٧٤)، سنن ابن ماجه(٣٨٧١)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٦٥٩).

(٤) صحيح البخاري (٢٨٩٣).

أمر مقدور له فهذا ليس بشرك، وقد جاء في الحديث: (يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ)[1]، في إشارة إلى المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، وذلك أن البيت الحرام فيها معاذ للناس وأمن لأنه لا يحل فيه سفك الدماء، **فعلى هذا**: لو قال امرؤ لصاحبه أعذني من كذا وكذا وذلك الشيء المستعاذ منه مقدور للمخاطب فلا بأس كأن يلحقه لص أو عدو، فيقول لصاحبه أعذني منه يعني أجرني منه وأدخلني في حمايتك فهذا لا بأس منه.

أما لو استعاذ به على وجه شركي فهذا لا يجوز، **ومثال ذلك**: ما حدثنا الله تعالى به في سورة الجن قال الله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦] ، جاء في سبب نزول هذه الآية أن بعض العرب كانوا إذا نزلوا مترلًا قال قائلهم : نعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ ما فيه، فتقول الجنّ: ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرّا ولا نفعا[2].

(فزادوهم رهقًا) قال المفسرون:تحتمل أحد معنيين:

إما أن الجن زاد والإنس رهقًا أي خوفًا وعنتًا وذعرًا باضطرارهم إليهم، وتضعفهم أمامهم، فلم يحصل لهم مرادهم، وإما أن المراد زاد الإنس الجن رهقًا أي تكبرًا وتجبرًا ولا تنافي بين المعنيين فكلاهما حاصل، فلما استعاذوا بغير الله -عز وجل- فيما لا يقدر عليه إلا الله أورثهم ذلك هذه النتيجة الوخيمة زاد خوفهم وذعرهم وزاد طغيان الجن واستضعافهم إياهم، وهكذا كل من استعاذ بغير الله، فالذين يقصدون السحرة والمشعوذين لا يزيدهم هذا إلا وبالًا، فإنهم لا يزالون يبتزونهم ويستضعفونهم ويسلبون أموالهم؛ لأنهم يعلقونهم بأمر موهوم مخوف، فيزيدونهم رهقًا.

وأعظم ما استعاذ به المستعيذون هاتان السورتان: الفلق والناس، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما"[3]، فينبغي للإنسان أن يعتني بهاتين السورتين في أوراد الصباح والمساء وقبل النوم؛ حتى يحصل بذلك العوذ الشرعي المطلوب، وعلى الإنسان ألا يستعيض عنها بالأدعية المزخرفة التي يصطنعها الناس، بل يرفع رأسًا بالعوذ الشرعية التي دل عليها كلام الله وكلام نبيه -صلى الله عليه وسلم-وأن يقدمها على كل شيء.

وتجوز الاستعاذة بالله سبحانه بأن يقول : أعوذ بالله أو باسم من أسمائه: كأن يقول أعوذ برب الفلق أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس، فيكون قد استعاذ بجملة من أسماء الله، ويجوز أن يستعيذ بصفة من صفات الله: كأن يقول أعوذ بعزة الله، كما قال نبينا -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بعزة الله وقدرته)، فاستعاذ بصفتين من صفات الله -سبحانه وتعالى-، أما من استعاذ بميت أو غائب أو حي غير قادر على الإعاذة فهذا ضرب من الشرك.

قال: وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾ الآية[الأنفال:٩].

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٨٢).

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٣/٦٥٤).

(٣)سنن الترمذي(٢٠٥٨)، سنن النسائي (٥٤٩٤)، سنن ابن ماجه(٣٥١١)، صححه الألباني في صحيح الجامع(٤٩٠١).

الاستغاثة: طلب الغوث وقد جرى ذلك للمؤمنين يوم بدر فإن الله جمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد خرجوا يطلبون العير فلقوا النفير، خرجوا يريدون قافلة أبي سفيان فوجدوا قريش بقضها وقضيضها وعتادها وخيلها ورجلها، كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر وكان عدد قريش ألفًا ونيف فلا سواء من حيث العدد والعدة ومع ذلك ثبَّت الله المؤمنين، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- يستغيث بربه ويناجيه -وهو في العريش- ويقول :(اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِى الأَرْضِ) ، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز و جل { **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ** }[الأنفال: ٩])[1]، فهذه استغاثة.

فالاستغاثة عبادة تطلب من الله سبحانه وتعالى

وهي أنواع:

- **النوع الأول: استغاثة العبادة:** هي طلب الغوث من الله عز وجل.

ومن استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله كالذين يستغيثون بالأولياء والأوتاد والأقطاب وغير ذلك من الألقاب التي يخترعونها، وهذا قد فشا وعم وطم بين الجهال من الطرقية الصوفية والرافضية، حتى إنهم ليأتون بالمضحكات ومن قرأ في "طبقات الشعراني"-" طبقات الأولياء" كما يسميهم- رأى العجب العجاب من أقوام ينسبون أنفسهم إلى الإسلام وهم يدعون غير الله، ويصيح أحدهم: مدد يا فلان، يطلب المدد من غير الله -عز وجل- فيما لا يقدر عليه إلا الله وهو غائب، ومما مر بي ذلك أنه كان ذكر حال رجل ممن يدعي أنه من الأولياء، وأن أحد مريديه استأذنه في السفر إلى الهند، فأذن له وقال: إن اعتراك خطبٌ فادعُ باسمي، يعني استغث بي، فخرج الرجل وركب البحر، قال: فبينا ذلك الشيخ المزعوم بين أصحابه يومًا إذ به يفسر عن ذراعه ويمد يده فإذا هم يرون الماء يبلغ كمه حتى بلغ عضده حتى بلغ الماء إلى كتفه؛ فقالوا: رأينا منك عجبًا، قال: نعم، أتذكرون فلانًا ؟! فإني أوصيته إذا ألم به خطبٌ أن يستغيث بي، فركب البحر فهاج البحر وعلتهم الأمواج حتى أشرفوا على الغرق فذكر مقالتي فنادى باسمي: يا شيخ فلان، فمددت يدي فأخرجت السفينة من قعر البحر!، هكذا تروج هذه الخرافات على هؤلاء الطغام فينتقول من التوحيد إلى الشرك. فيجب التنبه لهذا، والفصل بين هذا وبين الولاية الحقيقة لرب العالمين، فإن الولاية الحقيقية غير الولاية المدعاة، وأعظم علامة لأولياء الله امتثالهم لشرع الله وأعظمه التوحيد {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٢، ٦٣].

- **النوع الثاني: الاستغاثة المباحة:** هي الاستغاثة فيما يقدر عليه الآدمي فلا بأس بها، والدليل على جواز ذلك: قول الله -عز وجل- في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي قال: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ}

(١) صحيح مسلم (١٧٦٣).

[القصص: ١٥]، حرج في أن يقول إنسان يا فلان أغثني فيما يقدر عليه مثال ذلك أن يكون شخص يتخبط غرقًا فيبصر أحدًا على الشاطئ فيقول: يا فلان أغثني أغثني فهذه ليست استغاثة شركية أو يكون في بيت يحترق فيفتح النافذة ويقول: الغوث أغيثونا، فهذه أيضًا استعانة مباحة.

وهي الذبح فقال: **وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ **[الأنعام: ١٦١-١٦٣]. وَمِنَ السُّنَّةِ: (لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ).**

النسيكة هي الذبيحة، ولهذا قال الله تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }، فقرن بين الصلاة والنحر، كما قرن بينهما هاهنا فقال : **{قل إن صلاتي ونسكي}**، فالنسك قيل إنه الذبح، وقيل إنه مطلق العبادة، والقرب أن يكون المراد به الذبح؛ لأنه ذكره مقرونًا أو معطوفًا على الصلاة كما جرى التعاطف في سورة العصر، **(ومحياي)**: عملي في حياتي، **(ومماتي)**: أي ما أموت عليه، **(لله رب العالمين لا شريك له)** الدين لا يقبع في زاوية من زوايا الحياة، أو يختص بأعمال معينة بين جدران المسجد، أو بدريهمات يبذلها للفقير، أمر الدين أشمل من ذلك، الدين يستوعب الدنيا بأكملها ويتصل بالآخرة، فينبغي أن ندرك هذا المعنى الشمولي ؛ لأن كثيرًا من الناس من جراء تأثرهم بالنظرات الغربية للدين صاروا يتصورون الدين أحد أنواع الاهتمامات واختصاصات الحياة وهذا فهم كهنوتي للدين، هذا فهم النصارى الذين يقسمون الناس إلى قسمين: رجال الكهنوت الذين هم رجال الدين عندهم، والعلمانين الذين هم رجال الدنيا، ليس عندنا في الإسلام هذا التقسيم، الدين والدنيا عندنا في سياق واحد، فكل أمور الحياة ومناشطها يجللها ويصبغها دين الله -عز وجل- الذي لم يدع شاذة ولا فاذة إلا دل الناس عليه، ولهذا عبر الله تعالى بتعبير بديع فقال سبحانه وتعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة: ١٣٨]، وميزة الصبغة أنها تنتشر في جميع الأنسجة فأنت إذا أخذت قطعة قماش وغمستها في سائل ملون فإن هذا اللون يصبغ جميع الأنسجة، كذلك الدين؛ ما إن ينغمر القلب في دين الله -عز وجل- حتى يسمع بالله ويبصر بالله ويأتي ويذر بدين الله، فيصبح جميع الأمر لله عز وجل { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }، فالذبح عبادة فلا يجوز الذبح لغير الله أبدًا فمن ذبح لغير الله ومن أهراق الدم تقربًا لغير الله؛ فقد وقع في الشرك الأعظم الذي لا يغفره الله، وقد كان بعض الحنفاء قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-ينكر على مشركي العرب صنيعهم؛ فيقول: هذه الشاة تأكل من أرض الله، وتشرب من ماء الله وتذبحونها لغير الله؟! فيالها من حجة بالغة.

والذبح أنواع:

- **النوع الأول: ذبح العبادة:** فهو ما يتعلق بما شرعه الله لعباده من الهدي والفدية والأضحية والعقيقة.

- **النوع الثاني الذبح مباح:** كأن يذبح الإنسان لتحصيل اللحم ولضيف وفد عليه، أو نحو ذلك؛ فإن اقترنت به نية صالحة تحولت هذه العادة إلى عبادة، وإن لم تقترن به هذه النية؛ فإنها تبقى عادة من العادات لكن يشترط فيها ذكر اسم الله وإنهار الدم.
- **النوع الثالث الذبح الشركي:** هو ما يقع من بعض مشركي هذا الزمان وما قبله من أزمان، بأن يذبحوا تقربًا إلى الجن أو السحرة والمشعوذين، فتجد هذا الساحر أو المشعوذ يطلب ممن قصده أن يذبح ديكًا أسود أو تيسًا أسود في ساعة معينة ولا يذكر اسم الله عليه -فهذا والعياذ بالله- مخرج عن الملة لا يجوز فعله بأي حال من الأحوال.

قال: (وَمِنَ السُّنَّةِ (لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ): عد النبي-صلى الله عليه وسلم- أربعة ملاعن منها هذه اللعنة لعن الله من ذبح لغير الله ؛ لأن من ذبح لغير الله فقد أشرك معه غيره وينبغي في هذا المقام التنبيه على ما يفعله بعض الناس حينما يريقون الدماء بدعوى إكرام الضيف لكن يكون في قلوبهم تعظيم القادم وهذا يقع في بعض البوادي إذا قدم عليه الضيف قدم هذه الذبائح وقام يذبحها أمامه فربما قام في قلبه تعظيم هذا القادم إن كان سلطانًا أو أميرًا. بخلاف أن يكرمه بقصد الإطعام، فذلك مستحب فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ)[1] لكن أن قصد بذلك تعظيم هذا القادم أدخله في الشرك من حيث لا يعلم لأن في الذبح نوع تعظيم، فعلى الإنسان أن ينتبه لمثل هذه المسالك.

ثم قال: وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

النذر عبادة وحقيقة النذر إلزام المكلف نفسه عبادة ليست واجبة عليه أو أمرًا لا يلزمه، وقد اختلف العلماء في حكم النذر فمنهم من قال هو حرام ومنهم من قال هو مكروه ولعل القول بالكراهة أعدل الأقوال، وفرق بين الابتداء وبين الوفاء، فابتداؤه مكروه؛ لأن العبد يضيق على نفسه واسعًا، ولو تعبد العبد لله بما شرع لكفى، وقد رأينا من حال الناذرين أنهم يبحثون عمن يخرجهم من هذا الحرج، إما أنهم ينذرون بصوم طويل أو صدقة باهظة أو بحجج أو عمرات أو غير ذلك من الأمور، قال النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنَ الْبَخِيلِ)[2] وصدق بأبي هو وأمي فإنا والله نسمع من بعض المستفتين من إذا أخذ يسأل عن النذر كأنما يماكس مماكسة، هل يجب علي كذا هل يمكن أن أخرج منه بكفارة يمين هل يمكن أن أنفقه على أولادي؟ فينبغي أن يتجنب الإنسان النذر وإذا أراد من ربه شيئًا فما أسهل الأمر يرفع يديه ويقول يارب يارب فالله تعالى لا يعطيك بالمقايضة لأجل أن تنذر، الله تعالى كريم لا تفنى خزائنه فسل الله ما أردت من خيري الدنيا والآخر دون أن تنذر وإذا انعقد النذر وجب الوفاء به إن كان نذر طاعة لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصه فلا يعصه، واستدل الشيخ على كونه عبادة بقول الله تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا } [الإنسان:

(١) صحيح البخاري (٦٠١٨)، صحيح مسلم (٤٧).

(٢) صحيح البخاري (٦٦٢٩)، صحيح مسلم(١٦٣٩).

٧] ، قد اختلف العلماء هل النذر المقصود في هذه الآية النذر الذي يعنيه الفقهاء أم المقصود بالنذر مطلق الطاعة، قولان؛ يحتمل هذا ويحتمل هذا. وشبيه بهذا قول الله تعالى: { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [الحج: ٢٩] ، فقيل أيضًا فيها إن المقصود بفاء النذور إما النذر الذي سبق تعريفه عند الفقهاء وإما المقصود مطلق الطاعة.

فعلى كل حال يجب أن يفي الإنسان بل يجب الإنسان بالنذر الذي خرج مخرج الطاعة، والنذر أنواع محل تفصيله وبحثه في كتب الفقه، والمقصود هاهنا أنه لا يجوز أن يتقرب لغير الله بالنذر، لايجوز أن ينذر الإنسان لمقام فلان ومشهد فلان وتربة فلان، وهذا وللأسف شائع عند كثير من الجهال ويشجعهم على ذلك السدنة ومشايخ السوء المنتفعين من هذه النذور لأنهم هم الذي يستقبلونها ويستغلونها.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأصل الثاني

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

📖 **قال المؤلف –رحمه الله–: الأَصْلُ الثَّانِي مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ لله بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.**

المرتبة الأولى: الإسلام، فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

الأصل الثاني هو معرفة دين الإسلام بالأدلة وقد نبهنا على عناية الشيخ بالأدلة الفرق بين من يعلم الحق بدليله ومن يعلمه جري العادة، فإن من كمال التعبد لله –عز وجل– أن تعرف الحق بدليله وأن تمتثله اتباعًا.

(**دين الإسلام**) عرفه الشيخ –رحمه الله– بقوله (**الاستسلام لله بالتوحيد**) الاستسلام يعني الخضوع بالتوحيد، وقد بينا التوحيد بأنواعه الثلاثة بأن يفرد الله تعالى بالربوبية وأن يفرد الله تعالى بالعبادة والألوهية وأن يفرد الله تعالى بما ينبغي له من صفات الكمال ونعوت الجلال، (والانقياد له بالطاعة)، لا يمكن أن يقع إسلام إلا بطاعة خلافًا للمرجئة فإن من ضرورة الإسلام لله رب العالمين العمل، ولأجل ذا نجد أن الله تعالى لا يكاد يذكر الإيمان إلا ويذكر معه العمل الصالح، { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [البقرة: ٢٧٧]، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الشعراء: ٢٢٧] { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [النساء: ١٧٣]، {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥]، فلابد من طاعة، فلو زعم زاعم أنه قد أفرد الله بالتوحيد لكنه لا يعمل عملاً البته، لقلنا هذه دعوى باطلة.

(والبراءة من الشرك وأهله) البراءة تعني التخلي والمجانبة إذ لا يجتمع توحيد وشرك فالله تعالى يجعل الإيمان قائمًا على ساقين: توحيد الله والبراءة من الشرك كما قال الله –عز وجل– في آية الكرسي: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [البقرة: ٢٥٦]، قال الله تعالى في قصة الفتية من أهل الكهف {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} [الكهف: ١٦] ، فقد كان قومهم يعبدون غير الله، ويعبدون الله أيضًا، لكن هؤلاء الفتية أفردوا الله بالعبادة فلم يكن قومهم قد تركوا عبادة الله كانوا يعبدون الله لكنهم يفسدون ذلك بالشرك وكذا قال إبراهيم: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي } [الزخرف: ٢٦، ٢٧] ، فقد كان قومه يعبدون الله لكنهم يفسدون ذلك بعبادة غيره معه فتبرأ من جميع معبوداتهم واستثنى ربه –عز وجل– وكذا كان مشركو العرب يقول قائلهم: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شرك هو لك ملكته وما ملك"، فأهل النبي –صلى الله عليه وسلم– بالتوحيد: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ)[1]، فلابد من البراءة من الشرك وأهله؛ لأن الشرك يتمثل في جماعة فلابد من البراءة من أهله أيضًا ولهذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم– عن المؤمن والكافر (لاَ تَرَاءَى نَارَاهُمَا)[2] وقد قال الله –عز وجل–: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } [المجادلة: ٢٢] ، هذه حقيقة الإسلام، ويجب أيها الإخوة أن يكون لدينا ألسنة ناطقة وبيانًا واضحًا حينما نُعرف بديننا، فإذا قيل لنا ما دينكم الذي تدعون إليه؟ ينبغي أن ينطلق لسانك وبيانك في بيان حقيقة هذا الدين وميزته على سائر الأديان، وأنه لا يوجد دين توحيدي على وجه الأرض إلا دين الإسلام، هو إرث الأنبياء السابقين، وأما ما سواه من الملل والنحل فقد دخلها الشرك وفسدت بما أحدثه الأحبار والرهبان.

ثم قال وهو ثلاث مراتب، الواقع أن هذه المراتب كما أسلفنا هي مراتب الدين، إذ لا يستقيم أن نقول الإسلام ثلاثة مراتب أولها الإسلام ؛ لأن هذا تعريف للشيء ببعضه وإنما هي مراتب الدين بدليل أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قد قال في حديث جبريل الذي ذكر فيه الإسلام والإيمان والإحسان قال في آخره: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

📖 قال المؤلف –رحمه الله–: فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَا بِالْقِسْطِ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران، ١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ ﴿لا إله﴾ نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿إِلا اللهُ﴾ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْـــلَ

(١) صحيح البخاري (١٥٤٩)، صحيح مسلم (١١٤٨).

(٢) سنن أبي داود(٢٦٤٧)، سنن الترمذي(١٦٠٤)، سنن النسائي(٤٧٨٠)، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٠٧).

الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

أولى هذه الأركان وأعظمها وأجلها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قال الله تعالى : {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: ١٨]، هذه أعظم شهادة من أعظم شاهد في أعظم مشهود به، وفي هذا شرف لأهل العلم لا يبلغه شرف ؛ لأن الله تعالى قرنهم بذاته وملائكته.

(أشهد): أي أقر وأعترف كأنك لقوة يقينك بهذا الأمر القلبي تشاهده رأي العين، ولا ريب أن المشاهدة أعظم ما يكون في التحقيق فلهذا عبر بالشهادة مع أنه أمر علمي.

(إله) أي مألوه بمعنى معبود، فهو على وزن فعال بمعنى مفعول، كقولنا كتاب أي مكتوب فراش أي مفروش بساط أي مبسوط غراس أي مغروس، وليس إله بمعنى آله أي فاعل فمعنى قولك لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله، هذا تفسير كلمة التوحيد والإله: هو من تألهه القلوب محبة وتعظيمًا، أي تنجذب إليه من الوله، وذلك أن الإله المستحق للعبادة سبحانه وبحمده هو الذي يستقطب القلوب ويجذبها محبة وتعظيمًا لا يستحق هذا أحد سواه وهناك آلهة سوى الله بدليل أن الله سماها آلهة فقال سبحانه: { أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا } [الأنبياء: ٤٣] لكنها ليست آلهة بحق ولهذا قال يوسف عليه السلام: {ما تعبدون من دونه إلا أسماء}، إذن هي مجرد أسماء وعناوين، أما الإله الحق المستحق للعبادة وحده دون ما سواه فهو الله سبحانه لا إله غيره ولا رب سواه وقد عدت شهادة واحدة مع تعدد المشهود به لأنه لا يمكن أن تتحقق عبادة الله إلا بالإيمان برسوله -صلى الله عليه وسلم- ولا يمكن أيضًا أن تتحقق شهادة أن محمدًا رسول الله إلا بالإيمان بالله.

تفسير شهادة أن لا إله إلا الله

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال المصنف -رحمه الله- :

الأصل الثاني معرفة دين الإسلام بالأدلة قال المصنف : فدليل الشهادة قوله تعالى : {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: ١٨] ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحده ، لا إله نافياً جميع ما يُعبد من دون الله إلا الله مُثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] وقوله {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد ففي هذه القطعة التي استمعنا إليها شروع من المؤلف -رحمه الله- في بيان أركان الإسلام فالإسلام مقام على خمسة مبان أعظمها وأشرفها وهي بوابة الإسلام وأول الأمر وأوسطه وآخره الشهادتان ، شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله ، فأما شهادة ألا إله إلا الله فقد تقدم معناها وزادها الشيخ -رحمه الله- هاهنا بأن أقام الدليل على هذا المعنى فاستدل بقول الله تعالى **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** ، هذا لفظ الشهادة والملائكة أي الملائكة شهدوا بذلك أيضاً ؛ لأنهم عند ربهم وهم أعلم الخلق بربهم وقد أثنى الله عليهم ثناءاً عطراً فقال: **{بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٢٦ – ٢٨] وقال : {كِرَاماً كَاتِبِينَ }الانفطار١١** فهؤلاء الملائكة العظام يشهدون لله –عز وجل- في الوحدانية وأولو العلم لله درهم ما أعظم حظهم وشرفهم حينما قرن الله شهادتهم بشهادة ذاته وملائكته ، وذلك أن أهل العلم قد نور الله عقولهم وبصائرهم فأبصروا الأشياء والحقائق على ما هي عليه ، ألم ترى أن الله تعالى أحل عليهم فقال: **{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [سبأ: ٦] قوم يحيل الله –عز وجل- على رأيهم جديرون بالثناء ، ففي هذا شرف لأهل العلم وقال تعالى {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } [النساء: ٨٣]** فأهل العلم لديهم الملكة والقدرة على الاستنباط ولذلك أثبت الله شهادتهم ، فهذه أعظم آية في أعظم شهادة في أعظم مشهود به من أعظم شاهد ، ثم بين معناها أي لا إله إلا الله ، أي لا معبود بحق إلا الله فكلمة **لا** تفتقر إلى اسم وخبر لأنها لا النافية للجنس، لا إله فاسمها إله فأين خبرها؟ **خبرها محذوف تقديرها لا إله حق إلا الله ؛ لأن خبرها مرفوع**، فمعنى الكلام لا معبود بحق إلا الله –عز وجل- أما المعبودات المزعومة فكثير من الناس من يعبد الشجر ومنهم من يعبد الحجر والبقر وأصناف المعبودات التي تخطر على البال وقد لا تخطر ببال إلا الله فأثبت الألوهية له وحده سبحانه فقال لا إله أي نافياً جميع ما يعبد من دون الله، إلا الله مثبتاً العبادة وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه وهذا تعليل حسن، فلما كان سبحانه لا شريك له في ملكه كان جديراً بأن يكون لا شريك له في عبادته، وتأملوا معي يا رعاكم الله في هذا المعنى العظيم الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة سبأ لتروا عظمة القرآن وقوة دلالته وحجته يقول تعالى : **{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ }سبأ٢٢** إذاً الله تعالى ابتداءاً نفى عنهم ملك ذرة في السماوات أو في الأرض ربما قائل : لا يملكون استقلالاً لكن ربما يملكون مشاركة فيكون في ذلك نوع وجاهه لإن يعبدوا من دون الله فقال وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ فربما قال قائل لا يملكون استقلالاً ولا مشاركة لكنهم بمنزلة الأعوان والخدم والحشم الذين لا يستغني عنهم السلاطين فيكون مسوغاً لعبادتهم ودعائهم من دون الله فقال الله {وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢] أي معاون، إذاً محق الله –عز وجل- جميع ما قد يتسلل إلى الذهن من احتمال دعاء

غير الله فهم لا يملكون استقلالاً ولا مشاركة ولا معاونة هل بقي شيء؟ بقي شيء وحيد ربما يتذرع به المشركون بل قد تذرعوا به ماذا؟ الشفاعة أنهم قالوا سلمنا أنهم لا يملكون استقلالاً ولا مشاركة ولا معاونة لكن لهم جاه ومنزلة عند الله –عز وجل– تسوغ لنا أن نتخذهم وسائط كما هو الحال عند ملوك الدنيا يكون لهم وزراء مقربون فإذا توسط الإنسان بهم بلغوه مراده، هذا الاحتمال قائم وهو من أعظم أسباب الشرك فقال الله تعالى معقباً : **{وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ }سبأ٢٣** إذا كانت الشفاعة لله جميعاً فمعنى ذلك أنها لا تطلب إلا من عنده، إذا كانت الشفاعة لا تنفع إلا بإذنه فهي ملكه إذاً ما الفائدة أن تطلب ممن لا يملكها؟ الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة التي عند ملوك الدنيا ، ملوك الدنيا يجيزون شفاعة فلان وعلان إما رغبة أو رهبة، لكن الله عز وجل لا يستكثر بنا من قلة ولا يستعيذ بنا من ذلة، فلذلك كان تمكين بعض الصالحين والأنبياء من الشفاعة لإظهار فضلهم، لا أنهم يبادرن الله تعالى بذلك دون إذنه لا بد من شرطين كما سيأتينا، إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له فيا لهما من آيتين عظيمتين يمحقان الشرك من أصوله ويثبتان التوحيد، ولذا أردفهم الله تعالى بآية عظيمة قال {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} من هم؟ الملائكة الذين هم أقوى من يتصور ممن يدعى من دون الله انظر حالهم مع ربهم {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [سبأ: ٢٣]، إذا كان هذا هو حال الملائكة المقربين أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي أخذت السماوات رجفة أو رعدة ثم خروا غشياً لما ينفذ في قلوبهم من الصوت العظيم كأنه صوت سلسلة على صفوان كما في صحيح البخاري، إذا كان هذا حال هؤلاء الذين هم أقوى من نتصور من يمكن أن يدعى من دون الله فما بالك بمن دونهم ، فهذا من عظيم احتجاج القرآن ونفيه لمادة الشرك وإثباته لمادة التوحيد، فتأملوا في هذه المعاني العظيمة.

قال الشيخ –رحمه الله– : وتفسيرها الذي يوضحها أي كلمة التوحيد قوله تعالى : **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الزخرف: ٢٦ – ٢٨]** نسأل الله أن يجمعنا بإبراهيم عليه السلام وبنبينا محمد –صلى الله عليه وسلم–، انظروا إلى هذا الرجل هذا النبي الكريم كيف صدع بكلمة التوحيد بين ظهراني قومه قال إبراهيم لأبيه وقومه فخص وعم أي أنه عليه الصلاة والسلام لا يختلف الأمر عنده من قريب ولا بعيد فالذي أمر محمد أن يقول : {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [الشعراء: ٢١٤] فرقى على الصفا وقال يا معشر قريش يا عباس بن عبد المطلب يا صفية عمة رسول يا فاطمة بنت محمد خص وعم كان كذلك جده إبراهيم عليه السلام قال لأبيه وقومه **{إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}** وكلمة براء يسميها أهل اللغة صفة مشبهة وهي أبلغ من أن يقول إنني برئ مما تعبدون كلمة إنني براء كأنما كان هو ظرفًا للبراءة كأنه والبراءة نسيج، { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} [الزخرف: ٢٦، ٢٧]فهذا يدل على أن قومه كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره ولهذا تبرأ من جميع معبوداتهم واستثنى خالقه وإلهه الذي فطره، وهذا إذا اعتبرنا كلمة (إلا) استثناء متصل فهذا يدلك على أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الله ويعبدون

معه غيره فلما تبرأ من معبوداتهم استثنى ربه سبحانه وبحمد إلا الذي فطرني، أما إن قلنا أن إلا استثناء منقطع فهذا يدل على أنهم لم يكونوا يعبدون الله فتبرأوا من جميع معبوداتهم، ثم قال : إلا الذي فطرني يعني بل أعبد الذي فطرني فعلامة الاستثناء المنقطع أن ترفع إلا وتضع مكانها بل والتوجيه الأول أولي وأرجح. فإن الأمم السابقة كانت تعبد الله لكنها تشرك معها غيره، إلا الذي فطرني ما معنى فطرني؟ أي ابتدأ خلقي ولهذا معنى {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [فاطر: ١] أي مبتدأ خلقهن يقول ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أعلم ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر لهما فقال أحدهما : أنا فطرتها، فقلت ما فطرتها، قال أنا ابتدأت حفرها فعلم رضي الله عنه أن الفاطر يعني ابتداء الشيء، إذاً قول إبراهيم عليه السلام إلا الذي فطرني من أقوى الأدلة ؛ لأنه يدل على أن الذي ابتدأ خلقي وأوجد مادتي من العدم هو الحقيق بالعبادة، وبمثل ذا قال مؤمن القرية حينما أتى إلى قومه قال : **{قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس: ٢٠ – ٢٢]** تجد أن كلام أهل الإيمان متشابه وإلا لا علاقة زمنية ولا جغرافية بين إبراهيم عليه السلام ومؤمن القرية، لكن الإيمان واحد فيثمر ويخرج من المعاني نتائج واحدة فقال **{إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}** إي والله ولذا قال الله –عز وجل– في الحديث القدسي (يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ)[1] ، يجب أن نشعر بهذا الافتقار لله –عز وجل– في مأكلنا ومشربنا، وفوق ذلك كله في هداية قلوبنا، لهذا قال إبراهيم **{إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ(٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }** (وجعلها) إلام مرجع الضمير؟ إلى تلك الكلمة **{كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }** يعني في ذريته لعلهم يرجعون يأوون إليها ويرجعون إليها عند الاختلاف لكن منهم من هدى الله ومنهم من ضل لأن إبراهيم سأل ربه ذلك لكن الله –عز وجل– بين أن منهم من يؤمن ومنهم يشرك.

قال : وقوله {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: ٦٤] هذا أيها الإخوة الكرام توجيه رباني للنبي –صلى الله عليه وسلم– في مخاطبة أهل الكتاب وإذا قيل أهل الكتاب في الكتاب والسنة فالمراد بهم اليهود والنصارى، والمراد بالكتاب هو ما أنزل إليهم من ربهم الله قد أنزل على موسى التوراة، وأنزل على عيسى الإنجيل، فهم يفترقون عن بقية الأمم بأنهم أهل كتاب، وإن كانوا قد حرفوه ومن قسيمهم، من قسيم أهل الكتاب سماهم الله تعالى باسمين سماهم تارة المشركين وتارة الذين لا يعلمون، فقال تعالى : {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ } [البينة: ١] فهم قسيمها، وفي موضع آخر {قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [البقرة: ١١٣] يريد بهم سبحانه من ليسوا يهوداً ولا نصارى وفي

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧).

مواضع فصل طوائفهم فسمى سبحانه الصابئة وغيرهم فإذا قيل يا أهل الكتاب فليذهب الوهل مباشرة إلى اليهود والنصارى **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا}** ماذا نلتمس من هذا نستنبط أيها الإخوان أننا نحن أصحاب المبادرة إلى الحوار، هذه الكلمة كلمة الحوار كلمة شاعت في العقود الأخيرة وكثرت والحوار هو المراجعة بين الطرفين، كما قال الله –عز وجل- : {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ } [الكهف: ٣٧] وقال سبحانه {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]. فالتحاور هو المراجعة في الكلام، فنستنبط من قول الله تعالى **(تَعَالَوْا)** أننا نحن أصحاب المبادرة، لا ننتظر منهم أن يدعوننا بل نحن أصحاب المشروع الدعوي الإيماني التوحيدي، فحري بنا أن نبادئهم بالدعوة، لكن تعالوا إلى ماذا؟ إلى الموائد والمحافل؟ لا {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ } [آل عمران: ٦٤] (كلمة) نتفق نحن وإياكم عليها هذا معنى سواء بيننا وبينكم، هذه الكلمة لم يدعها الله تعالى لتفسير مفسر، ولا لقول فقيه فتولى سبحانه تفسيرها وبيانها فقال: {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ}[آل عمران: ٦٤]، هذه هي الكلمة السواء، فإذا خاطبنا اليهود والنصارى فخطابنا يجب أن ينطلق من هذا المضمون، وهذا النص كما أمر الله نبيه، وكما امتثل نبيه لأمر ربه فحينما كتب إلى هرقل عظيم الروم قال: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد: أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين(١)، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [آل عمران: ٦٤] فكتب النبي –صلى الله عليه وسلم- له هذه الآية بنصها امتثالاً لأمر ربه وهكذا صنع مع نصارى نجران وهكذا صنع مع اليهود في المدينة كانت دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم- وحواره لأهل الكتاب تنطلق من هذه الآية أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، لأنه من لزم التوحيد نفي الشرك، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، إذ أن القوم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، هذا هو مشروعنا وهذه هي دعوتنا التي نبادئ بها البشرية والناس جميعاً، من يوم النبي –صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا ليس لنا مشروع سواه فإن أبو قال الله –عز وجل- {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤] ، إذاً ليس صواباً أن نبحث عن حل مشترك ولا أن نلتقي في منتصف الطريق وأن نتنازل عن بعض عقائدنا وهم كذلك، ثم نصنع توليفة من دين مهجن لا حاشا وكلا، الدين دين الله لسنا أوصياء عليه حتى نفصله على مقاس معين، يجب علينا أن نمتثل أمر ربنا وأن ندعو الناس جميعاً إلى دين الله الذي فيه سعادتهم ونجاتهم فإن هم استجابوا لذلك فحيا هلا ومرحا، وإن أبو فإنا نقول كما أمرنا ربنا {اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}، علامة واضحة وشعار مشهور معروف وعلى هذا سار أهل الإسلام من لدن النبي –صلى الله عليه وسلم- عبر القرون يدعون إلى دين الإسلام والتسليم برسالة محمد –صلى الله عليه وسلم-

(١) صحيح البخاري (٧)، صحيح مسلم(١٧٧٣).

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير شهادة أن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال المصنف –رحمه الله– :

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨] ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

قال (ودليل شهادة أن محمداً رسول الله) انتقل إلي الشق الثاني من الشهادة، وقد ذكرت لكم أن الشهادتين ركن واحد فكيف كانا ركن واحداً مع تعدد المشهود به، هما ركن واحد مع أن المشهود به متعدد السبب أنه لا يمكن إثبات شهادة أن لا إله إلا الله إلا بإثبات شهادة أن محمداً رسول الله كيف نعبد الله –عز وجل– كيف نحقق توحيد الألوهية إلا بما أخبرنا به نبيه –صلى الله عليه وسلم– فلا انفكاك بين شقي الشهادة، كذلك لا يكون الإنسان متبعاً لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– حقاً وصدقاً إلا وقد امتثل أعظم ما جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو توحيد رب العالمين فصارت الشهادتان ركناً واحداً لا ينفصل بعضه عن بعض، دليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله **تعالى {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [التوبة: ١٢٨] إي والله من أنفسكم يعني من جنسكم، لم يترل الله تعالى ملكاً كما اقترح المقترحون قال الله تعالى {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ } [الأنعام: ٩] {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} [الإسراء: ٩٥]** لكن حكمة الله البالغة أن يكون النبي من جنس قومه يحس بما يحسون ويفعل بنفسه وببشريته ما يأمرهم بفعله فلذلك كان من أنفسهم وفي قراءة من (أنفَسِكُم) لكن القراءة المشهورة من أنفسكم {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} أي يعز عليه ما يشق عليكم ويعنتكم، {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } أي أنه شديد الشفقة –صلى الله عليه وسلم– على أمته.

فيحرص على دلالتهم على الخير وعلى تجنيبهم الشر وقد كان إي والله فإن نبينا –صلى الله عليه وسلم– كما قال ربنا : {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة: ١٢٨] ، ففي قلبه من الشفقة على أمته ما لا تتسع له العبارات، فهو بالمؤمنين روءوف يعني: ذو رأفة. رحيم: ذو رحمه.

وفي هذا دلالة على جواز أن يسمى غير الله باسم من أسماء الله تعالوا على اعتبار أن ما لله يليق به وما للمخلوق يليق به.

فيصح أن، بل يجب إن نصف نبي صلى الله عليه وسلم بأنه رؤوف رحيم، مع أن الرؤوف من أسماء الله الحسنى والرحيم من أسماء الله الحسنى، ولا تعارض، لأن الرأفة والرحمة وسائر الصفات بينها معنى مشترك، وهذا الاشتراك يكون في الأذهان، في المعاني المطلقة فإذا أضيف تخصص، فإذا قيل رحمة الله فهي رحمة تليق به، وإذا قيل رحمة الأم صارت رحمة معهودة، وإذا قيل رحمة الأب فهي رحمة كذلك مخصوصة، وهكذا.

إذًا لا أشكال إن يطلق على المخلوق اسم أو صفة مما يسمى الله به أو يوصف الله تعالى به، على اعتبار أن ما لله يليق به وأن له منه المثل الأعلى {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الروم: ٢٧]، وأن ما للمخلوق يليق به.

فقد كان لنبينا صلى الله عليه وسلم من الرأفة والرحمة بأمته أعلى ما يمكن أن نتصوره من البشر وشوهد هذا كثيرة كتب السيرة ذاخرة بكمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته.

ثم بين معنى الشهادة فقال: (**ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع**): ما أجمل هذه العبارات المرتبة.

قال الشيخ:(**طاعته فيما أمر**) وكنت أود لو ابتدأ بأمر التصديق لكي تكون الطاعة والاجتناب سواء، مما يتحقق به شهادة أن محمد رسول الله أن نصدقه فيما أخبر، فإذا نبيه صلى الله عليه وسلم عن أمر من الأمور فإننا نطيب به نفسا ونقر به عين ولا نعرضه على الاحتمالات أو نقول هذا تحت الفحص والمراجعة لا، لا يمكن أن يثبت إيمان إلا بأن يقطع الإنسان بصدق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم.

ومثال ذلك: لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلي بيت المقدس وعرج به إلي السماء في ليلة واحدة ورجع أدراجه إلي مكة أصبح مهموما حزين لا يدري كيف يبدأ قريش بهذا الخبر، فمر به أبو جهل قال: مالك يا أبا القاسم ، قال أنه قد أسري بي البارحة فأتيت مسجد إيليا فصليت فيه، ففرح أبو جهل بهذا الخبر وقال: أجمع لك الناس لتخبرهم، ها هذا نشاط دعوي؟!! لا يعلم أن كثير من الناس إذا سمعوا بهذا الخبر سيكون سببا في ردتهم وفعلا جمع الناس وقال استمعوا لما يقول محمد صلى الله عليه وسلم، فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل يخبرهم وهم مندهشون، فضحكوا وقالوا: ما ظهر كذبك في يوم من الأيام مثل ما ظهر في هذا اليوم، وحتى إنهم قد أردوا إحراجه فقالوا: أن قد أتينا مسجد ايلياء فصفه لنا.

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قد تأمل فيه، فإدراكه من الكرب شيء عظيم، لكن الله تعالى جلى له المسجد، فكأنه أمامه

فجعل ينعته لهم نعتا دقيقا فعجبوا اشد العجب، لأنهم يعلمون انه لن يذهب، ولم يصل إلي ذلك الموضع، غاية ما يصل إلي البلقاء في الشام ثم عاد به عمه خوفا علية من اليهود، ما الشاهد من هذه القصة إن بعض هؤلاء القوم انفضوا من المجلس وذهبوا إلي أبوبكر رضي الله عنه فقالوا يا أبى بكر: انظر ماذا يقول صاحبك أنه يزعم أنه أتى مسجد ايلياء في ليلة، ونحن نضربوا إلية أكباد الإبل شهرا و نعود شهرا ويزعم انه أتاه في ليلة واحدة ورجع. أتدرون ما قال رضي الله عنه قال: إن كان قاله فقد صدق. دون تردد ما قال: لا اصبروا أتبين، ما أعطاهم فرصة ليتقربوا منه شيئا. قال إن كان قاله: فقد صدق، فأنى أصدقه بخبر السماء يأتيه في المجلس الواحد[1]. معنى ذلك انه يصدقه في خبر السماء فمن باب أولى أن يصدقه فيما دون ذلك. فلأجل ذلك سمى بالصديق، فالصديق هو المبالغ في التصديق يعنى الذي بلغ الغاية في التصديق.

ويتبين أيها الإخوان أن معنى تصديقه فيما أخبر لأن كثيرا من الناس يشهد أن محمد رسول الله لكن أحيانا إذا جاءه حديث أو النص قال هاه إيش لون اصبر إيه ولو، يأخي هذا ليس تصديقا، التصديق أن تطيب نفسك و تقر عينك في خبر النبي صلى الله عليه وسلم بشرط ثبوته وصحته. المثال الثاني ما رواه الإمام البخاري رضي الله عنه قال قام رسول الله صلى الله علية

(١) انظر البداية والنهاية (٣/١٠٩-١١٥).

وسلم (بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهُ الرَّاعِي فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي وَبَيْنَمَا (وَبَيْنَا) رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ فَقَالَتْ إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ فَقَالَ النَّاسُ سُبْحَانَ اللهِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي أُومِنُ بِذَلِكَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)[1] أرأيتم هؤلاء الصديقون يحكم عليم النبي صلى الله عليه وسلم غيابيا بأنهم سيصدقون بخبره وكثيرا من الناس يدعى العقلانية وإذا جاءه حديث بالأسانيد الجياد التي تبرق كالشمس قالوا لابد ننظر لابد نفحص ولابد نظر يمكن التأويل، أضرب لكم مثالا يحدث النبي بحديث صحيح إذا (إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً وَفِي الْآخَرِ دَاءً)[2].

فيأتي بعض العصرانين والعقلانيين وقالوا أن هذا الحديث ينفي قواعد الطب الحديث و ينبغي إن لا يكون صحيحا أين الإيمان إذا إن لم يكن الإيمان بالغبطة في خبر الله ورسوله وقبوله قبولا مطلقا وإلا صار الانقياد للعقل وليس الانقياد للنص فعودوا أنفسكم بارك الله فيكم على تعظيم للنصوص إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل،إذا جاء الخبر عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم فلا تجعل بإزاء هما شيئا، ولهذا قال العلماء القياس في مقابلة النص فاسد الاعتبار، هذا عن التصديق .

(طاعته فيما أمر) أي: امتثال ما أمر به النبي صلى الله علية وسلم فإن هذا هو مقتدى الشهادة وأعلموا أن ما يأمر به النبي صلى الله علية وسلم على ضربين أما على سبيل الإلزام وإما على سبيل الاستحباب فما كان على سبيل الإلزام فان الفقهاء والأصوليين يسمونه واجب وما كان على سبيل الاستحباب يسمونه مندوبا والواجب على المؤمن وأرجو أن تنتبهوا لهذا المعنى التربوي يا معشر المؤمنين والمؤمنات أذا جاءك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فليكن همك أن تمتثل لا تقل واجب ولا سنه لا كما يسال كثير من الناس الآن حينما يؤمر بشيء يقول السنة كذا وكذا هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذاو كذا وهذا واجب ولا سنه كأنما المسألة مماكسه.إذا جاءك الأمر فقبله ثم بعد ذلك إن عجزت عنه أو شقه عليك فنظر هل هذا على سبيل الإلزام أو على سبيل الاستحباب.

(واجتناب ما عنه نهى وزجر) هذا يتعلق بالمنهيات فما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم وزجر عنه فالواجب في حقنا اجتنابه وهذا المنهي عنه أيضا عند الأصوليين والفقهاء أما أن يقع على سبيل الإلزام بالترك، أو على سبيل الكراهية، فالأول يسمونه محرما والأخر يسمونه مكروها، ومرة أخرى أقول لنفسي ولكم ما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم سواء نهى تحريم أو كراهة فالذي ينبغي لنا أن نجتنبه ولا نماكس ولا نقول طيب محرما أو مكروها ماذا قال أكثر الفقهاء انتهي وقد جاء في الحديث الصحيح (إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)[3] ربو أنفسكم أيها الإخوة على هذا المبدأ على أن الإنسان يصدق نبيه صلى الله عليه وسلم فيما اخبر ويطيعه فيما أمر ويجتنب ما نهى عنه وزجر ثم أتى بالرابعة (وإلا يعبد الله إلا بما شرع) قد يقول قائل طيب إن أصدقه فيما اخبر وأطيعوه فيما أمر، واجتنب ما نهى

(١) صحيح البخاري (٣٦٦٣)، صحيح مسلم (٢٣٨٨) .

(٢) صحيح البخاري (٥٧٨٢).

(٣) صحيح البخاري (٧٢٨٨) صحيح مسلم (١٣٣٧).

عنه وزجر سلمت بذلك، لكن لا باس بعض الإضافات والأمور الجميلة التي ادخلها وأتعبد لله بها، يقال:لا يمكن، الدين ليس مزاد علنيًا، أن تزيد عليه وتنقص، أن زدت على هذا الدين فقد وقعت في البدعة، لأن في فعله هذا تهمه مبطنه للنبي صلى الله عليه وسلم انه قد قصر في البلاغ وأن ثم أمورا مستحسنه كان ينبغي أن يدل الأمة عليها و لم يفعل هذا معنى أن تتعبد لله بأمر لم يشرعه النبي صلى الله عليه وسلم ولذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ (مِنْهُ) فَهُوَ رَدٌّ)[1] (وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)[2] أضبطوا هذه القضية، لأن كثيرا من المسلمين ضل في باب الاتباع وظن أنه بوسعه أن يحدث في الدين ما يزينه عقله ويستحسنه برأيه، وهذا عند العلماء بدعة وتعريف البدعة كما عرفها الإمام الشاطبي رحمه الله قال: هي طريقة في الدين مخترعة تضاهى الشرعية بقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى[3] ،كما في كتاب الاعتصام، قال تضاهي الشريعة: أي أن صفتها وصورتها مثل الأمور المشروعة. والمهم أن هذا هو المعنى لشهادة أن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينبغي لنا حينما نسمع المؤذن يقول اشهد إلا اله إلا الله واشهد إن محمد رسول الله يقوم في قلوبنا هذه المعاني و أن نجدد العهد مع الله تعالى بتوحيده واتباع نبيه صلى الله عليه وسلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

باقي أركان الإسلام

قال المصنف رحمه الله ودليل الصلاة و الزكاة و تفسير التوحيد وقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥]، ودليل الصيام قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣]، ودليل الحج قوله تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧] .

بعد أن ذكر الشيخ رحمه الله دليل الشهادتين اتبع ذلك باقي أركان الإسلام فقال ودليل الصلاة والزكاة و تفسير التوحيد قوله تعالى{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} [البينة: ٥] إلي ما مرجع الضمير فيما قوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} أي: إلي أهل الكتاب لأنه قال قبلها {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } [البينة: ٤] ثم قال في الآية {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥] فدل ذلك على عظم هذه الثلاثة في التوحيد قوله (إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) أي: مائلين عن الشرك إلي التوحيد. (وَيُقِيمُوا

(١) صحيح مسلم (٢٦٩٧) (صحيح مسلم (١٧١٨).

(٢) صحيح البخاري (٢١٤١)، صحيح مسلم (١٧١٨).

(٣) الاعتصام (٣٧/١).

الصَّلَاةَ) فما أعظم أمر الصلاة حيث جعله الله تعالى رديف للتوحيد وهي كذلك. فما معنى الصلاة؟ الصلاة في اللغة: الدعاء. هكذا تعرفها العرب. ولهذا قال الأعشى:

تقول بِنْتي وقد قَرَّبْتُ مرتحلاً يا ربِّ جَنِّبْ أبي الأَوْصابَ والوَجَعَا

علَيكِ مثلُ الذي صَلّيتِ، فاغتَمضي نَوماً، فإنّ لجَنبِ المرءِ مُضطجعَا[1]

عليك مثل الذي صليت: أي مثل الذي دعوتي.

أما في الاصطلاح فإن الصلاة: عبادة ذات أقوال و أفعال مفتتحه بالتكبير مختتمة بالتسليم.وبسط ذلك في كتب الفقه. لكن تأملوا أن الله تعالى لم يأمر بالصلاة وحسب، بل أمر بإقامة الصلاة إذا ما معنى يقيموا الصلاة أي: يؤدنها على وجه الاستقامة أي: بشرائطها، وأوقاتها، وأركانها، واجباتها، وسننها، (وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) معنى الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء، قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: ١٠٣]، وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: ٩] أي: زكى نفسها و طهرها.

أما في الاصطلاح فإن: المقصود بها التعبد لله سبحانه وتعالى بإخراج مال مخصوص، إلي طائفة مخصوصة. وهم مصارف الزكاة الثمانية. وأمر الزكاة عظيم فإن الله تعالى دائما يقرن الصلاة بالزكاة، ولهذا حارب أبو بكر الصديق المرتدين لما فروق بين الصلاة والزكاة وقال: (وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ)[2]، فأمرها عظيم وقد قال الله تعالى في آية أخرى { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ } [التوبة: ١١] وقال {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } [التوبة: ٥] فهذا يدل على عصمة المال والدم، وأن هذا مقرون بالتوحيد وإقامة الصلاة والزكاة، ثم قال ودليل الصيام قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣]كتب أي: فرض. (كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) في هذا إيناس لهذه الأمة، أنكم لستم وحدكم قد كلفتم بهذه العبادة بل قد سبق هذا لمن كان قبلكم من كان من الأمم وحتى يكون في ذلك حافز لهم ثم بين ثمرة الصيام وفائدته فقال (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، ولذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[3]، الصوم في اللغة معناها: الإمساك، وكما قالت مريم عليها السلام {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا

(١) الانتماء في الشعر الجاهلي (١/١٥٤).

(٢) صحيح البخاري (٧٢٨٥)، صحيح مسلم (٢٠).

(٣) صحيح البخاري (١٩٠٣).

فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا } [مريم: ٢٦] وكما تقول العرب صامت الأرض عليه أي: أمسكته. وكما قال الشاعر :

خيلٌ صِيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ تحتَ العَجاجِ وخيلٌ تَعْلِكُ اللُّجُما[1]

خيلُ صيامٌ: أي ممسكه عن الجريان.

وأما تعريف الصيام اصطلاحا فهو: التعبد لله بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلي غروب الشمس.

وأما الحج هو خامس الأركان وهو لغة يعنى: القصد وأما الاصطلاح هو: التعبد لله تعالى بقصد مكة لعمل مخصوص في مكانا مخصوص وفي زمانا مخصوص. هذه المباني الخمس هي أركان الإسلام التي دل عليه حديث ابن عمر رضي الله عنهما (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ)[2] وعدها صلى الله عليه وسلم إذا يجب علينا إن نحقق هذا الأصل العظيم وهو الإتيان بأركان الإسلام الخمسة وقد ختم الله تعالى قوله {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} مع أن الاستطاعة مطلوبة في كل عبادة، من شرط وجوب كل عبادة القدرة، لكن لما كان أمر الحج شاق من الناحية البدنية والمالية نوها الله تعالى بذكر الاستطاعة، وثم ختم الآية بقوله {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}، وهذا هو مذهب بعض السلف أن من ترك الحج مع قدرته عليه أنه يكون بذلك كافرا ويروى بهذا اثر عن علي رضي الله عنه، وعن عمر رضي الله عنه، إلا أنها لا تصح والصحيح أن هذه الأركان الخمسة فرائض مكتوبة وأن الإنسان لا يكفر بترك شيئا منها إلا الشهادتين، والصلاة، إما الشهادتين فإجماع ولا شكل وإما الصلاة فقد اختلاف العلماء في هذا وذهب الإمام أحمد رحمه الله وجمعا من السلف إلي أن تارك الصلاة ولو تكاسلا و تهاونا كافر كفرا مخرج عن الملة. وذهب غير الإمام احمد إلي أنه كافر ولكن كفرا أصغر، والراجح في هذا هو ما ذهب إلية الإمام أحمد -رحمه الله- بأدلة مبسوطة في كتب الفقه، وأما الزكاة فقد قال بعض العلماء أن تاركها يكفر لأن الله قرنها بها آية البراءة {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ } [التوبة: ٥] إذا من لم يكن كذلك ليس أخا لنا في الدين، وهذا لاشك أنه استنباط قوى، إلا أنه يشكل عليه حديث مانع الزكاة الذي فيه (مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِىَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ) فدل ذلك على أن مانع الزكاة لا يكفر بذلك، وأما الصوم والحج فأنهما لا يكفر بيهما.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين .

---

(١) من قول النابغة – انظر الكامل في اللغة والأدب (٦٧/٣).

(٢) صحيح البخاري (٨)، صحيح مسلم (١٦).

الإيمان – بالله وملائكته

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ، وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: كما في الحديث: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩].

الحمد لله رب العالمين،، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فلما فرغ المصنف –رحمه الله– من المرتبة الأولى من مراتب الدين: وهي الإسلام؛ ثنى بما ثنى به نبينا –صلى الله عليه وسلم– وجبريل في الحديث المشهور وهو الإيمان، والإيمان إذا ذكر فقد يراد به الإيمان الذي بمعنى الدين كله، وقد يراد به الإيمان الذي هو الأعمال الباطنة، فإذا ذكر الإيمان مع الإسلام في نص واحد؛ فإن الإسلام يعني الشرائع الظاهرة، والإيمان يعني العقائد الباطنة، وإذا ذكر كل منهما في نص مستقل؛ فإن كل منهما يدل على الدين كله، فلو قال لك قائل: ما الفرق بين الإيمان والإسلام؟ فقل له: إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، ومعنى ذلك: أي إذا اجتمعا في نص واحد بأن ذكر الإسلام والإيمان؛ فإن الإسلام يعني الشرائع الظاهرة كما في حديث جبريل، فقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم فيه الإسلام بأنه أركان الإسلام الخمسة التي هي شرائع ظاهرة: النطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، وفسر الإيمان بالعقائد الباطنة فقال:(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، أما إذا جاء ذكر الإسلام منفردًا؛ فإنه يتضمن الإيمان؛ لأنه يعني الدين كله كما قال الله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: ١٩] ، وإذا ذكر الإيمان منفردًا؛ فإنه يدل على الدين كله المتضمن للإسلام، هذا هو معنى قول بعض العلماء إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا؛ ولأجل ذا فإن الشيخ –رحمه الله– لما أراد أن يعرف المرتبة الثانية الإيمان ذكر التعريف العام والتعريف الخاص؛ فقال: **الإِيمَانُ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ** –كما قال النبي صلى الله عليه وسلم– ثم بعد ذلك عدد أركانه.

والإيمان في اللغة: معناه التصديق؛ لكنه تصديق من نوع خاص، قال الله تعالى عن إخوة يوسف {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف: ١٧] ؛ لكنه في الواقع تصديق مقرون بائتمان وإقرار وانقياد وإذعان؛ فهو ليس تصديقًا مجردًا، فالإيمان في اللغة: التصديق المقترن بالإقرار والإذعان.

وأما معناه في الإصطلاح؛ فهو قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان، وهذا هو معنى قول العلماء: الإيمان قول وعمل؛ فالإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل ليس الإيمان فقط مجرد القول، ولا مجرد العمل؛ بل الإيمان قول وعمل؛ ولهذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأن له شعبًا كثيرة قال: (فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ)، فلا يتم إيمان امرئ مسلم إلا بأن يعتقد بجنانه -بقلبه-، ويتلفظ بلسانه، ويعمل بأركانه -جوارحه-، فالقلب يتعلق به اعتقاد وعمل، واللسان يتعلق به قول وعمل، والجوارح يتعلق بها عمل.

❖ **ونبين ذلك بالأمثلة:**

- **قول القلب**: المراد به اعتقاده، يعني ما ينعقد عليه القلب من العلوم الصحيحة والمعارف الصائبة: كأن تعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له، أرسل رسلًا، وأنزل كتبًا، وجعل يومًا آخر وجنة ونارًا: هذه عقيدة قلب هذا قول القلب.
- **عمل القلب**: هو ما يتحرك به القلب من النيات والإرادات: كالمحبة والخوف والرجاء.

ففرق بين قول القلب وعمله: فقول القلب: هو الاعتقاد، وعمل القلب: هو ما ينبض به القلب من العبادات القلبية: كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والاستعانة وغيرها.

- **قول اللسان**: المقصود به: الاستعلان بالشهادتين؛ فلا نحكم بإسلام أحد حتى يلفظ بلسانه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، لا بد من هذا الإعلان الظاهري جهرًا.
- **عمل اللسان**: ما زاد على ذلك: من التلاوة والدعاء والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والقول الحسن.
- **أعمال الجوارح**: ما تقوم به الجوارح من حركات تعبدية: كالقيام، والركوع، والسجود في الصلاة، وكالوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة في الحج.

فلا يكون إيمان إلا بالقول والعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، بهذا تتم منظومة الإيمان، فلو قال إنسان: أنا قد صدقت بأن الله حق، ووعده حق، والنبيون حق، والجنة والنار حق، لكن لا عمل: لن أفعل الطاعات، ولن أجتنب المحرمات مطلقًا، فلا نثبت له إيمانًا؛ لأن الإيمان حقيقته مركبة من قول وعمل، فلا بد من القول والعمل معًا؛ لكن هذا لا يلزم أن يأتي بجميع أعمال الجوارح؛ لكن لا بد أن يكون منه عمل؛ فإنه إذا كان في القلب عقيدة فلا بد أن تثمر عملًا، ولهذا مثّل النبي -صلى الله عليه وسلم- لشعب الإيمان بهذه الأمثلة، قال: (فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إِلا اللهُ)، هذه أعلى شعب الإيمان.

قوله: قَوْلُ لا إله إلا اللهُ: تشمل اعتقاد القلب؛ لأن الاعتقاد يقال عنه: قول ونطق اللسان.

قوله: وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ: هذا عمل جوارح؛ فإماطة الأذى عن الطريق خصلة من خصال الإيمان.

قوله: وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ: هذا عمل القلب.

فلهذا مثل النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمثلة، وبهذا يتبين لنا أن الإيمان يشمل الدين كله بهذا التعريف، فحينما نقول الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، أو نقول: الإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، **هذا هو التعريف العام للإيمان** الذي يساوي الدين كله.

أما التعريف الخاص للإيمان؛ فإنه يقصد به: العقائد القلبية التي فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث جبريل بقوله: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).

وهذه العقائد -العبادات- القلبية: هي شجرة الإيمان التي قال الله عنها : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [إبراهيم:٢٤- ٢٥] ، وسوف أعرض عليكم الآن تقسيمًا لهذه الشجرة، ومن أحسن التقاسيم التي مرت عليّ في بيان شجرة الإيمان تقسيم شيخنا -رحمه الله- محمد بن صالح العثيمين لهذه المسألة، وسأعرض عليكم كلامًا مفيدًا منظمًا، أرجو أن يكون منكم على بال، وأن تقيدوه وتكتبوه، وتتصوروا هذه الشجرة المباركة الشريفة:

شجرة الإيمان: الساق العظيم لهذه الشجرة هو الإيمان، ويتفرع منها ستة فروع، وكل فرع من هذه الفروع الستة يتفرع منه أربعة أغصان، وبهذا سيخرج معنا في النهاية أربعة وعشرين غصنًا، وكل هذا من باب تقريب العلم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الإيمان أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)؛ فهذه ستة أركان.

❖ **الركن الأول: الإيمان بالله**، ولا يتم إيمان امرئ بالله حتى يؤمن بأربعة أشياء:

أولًا: الإيمان بوجوده سبحانه؛ فيعتقد الإنسان اعتقادًا حازمًا بوجود الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر فطري، ولا ينازع في هذا الأمر إلا الملاحدة المنكرين لوجود الله عز وجل.

ثانيًا: الإيمان بربوبيته: أي الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق المالك المدبر -كما تقدم معنا سابقًا- وينازعنا في هذا: منكرو الربوبية: كفرعون الذي قال : {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٢٣] ، وكالنمرود الذي قال: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} [البقرة: ٢٥٨].

ثالثًا: الإيمان بألوهيته: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، وينازعنا في هذا: المشركون الذين يصرفون شيئًا من أنواع العبادة لغير الله.

رابعًا: الإيمان بأسمائه وصفاته، أو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] ، وينازعنا في هذا: صنفان من الناس من أهل القبلة:

المعطلة: الذين ينكرون أسماء الله وصفاته كلها أو بعضها.

والممثلة: الذين يثبتونها على وجه مماثلة المخلوقين.

أما أهل السنة؛ فإنهم يثبتون إثباتًا بلا تمثيل، وينزهون الله تنزيهًا بلا تعطيل.

وهذا هو الفرع الأول بأغصانه.

❖ **الركن الثاني : الإيمان بالملائكة**، ولا يتم إيمان امرئ بالملائكة حتى يؤمن بأربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بوجود الملائكة، وأنهم خلق حقيقي من خلق الله خلقهم الله تعالى من نور، وينازعنا في هذا: الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات ولا يؤمنون بالمغيبات، أو الذين يزعمون بأن الملائكة قوى معنوية وليست أجسامًا حقيقية.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم ، ومن لم نعلم اسمه؛ فإننا نؤمن به إجمالًا، الإيمان بمن علمنا اسمه منهم مثل: جبريل، ميكائيل، إسرافيل، ملك الموت، منكر، نكير؛ فهؤلاء نؤمن بهم بأسمائهم، ومن لم نعلم اسمه منهم فإننا نؤمن به إجمالًا ؛ لأن ملائكة الله كثر لا يحصيهم عد، {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: ٣١] ؛ فقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- (رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ)[1]، يعني لا تأتيهم النوبة مرة أخرى وهذا يدل على كثرتهم، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : (إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ حتى قال الراوي: وددت لو أني شجرة تعضد)[2]، والأطيط: هو الصوت الذي يُسمع حينما يثقلل الراكب على الرحل فيسمع للسيور والجلد صوت بسبب الثقل.

الأمر الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم، ذلك أن الملائكة عالم غيبي لم نره بأعيننا؛ لكن الله تعالى أخبرنا عن بعض صفاتهم؛ فقال سبحانه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} [فاطر: ١] إذن من ملائكة الرحمن من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من فوق ذلك، حتى أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى جبريل وله ستمائة جناح[3]، كل جناح قد سد

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧)، صحيح مسلم (١٦٤).

(٢) سنن الترمذي (٢٣١٢)، قال الألباني حسن دون قوله لوددت.

(٣) صحيح البخاري (٤٨٥٧)، صحيح مسلم (١٧٤).

الأفق؛ لعظم خلقه عليه الصلاة والسلام، وقال في حديث آخر: (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ)(1)، تبارك الله هذا خلق من خلق الله.

الأمر الرابع: الإيمان بما علمنا من وظائفهم وأعمالهم، وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن عبادة مشتركة بين جميع الملائكة: وهي الاجتهاد في العبادة، فقال: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } [الأنبياء: ١٩، ٢٠] ، فقد ألهموا التسبيح إلهامًا وأعطاهم الله سبحانه وتعالى القوة على عبادته، كما قالوا: {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: ٣٠] ، هذا دأبهم وهذا عملهم؛ فنفوسهم زكية ليس فيها نزعة إلى الشر مطلقًا؛ فهذه وظيفتهم المشتركة، لكن لهم وظائف متخصصة كما قال الله تعالى : { وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} [الصافات: ١٦٥، ١٦٦] وقال الله تعالى {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} [النازعات: ١ – ٥] ، هذه طوائف من الملائكة مكلفة بأعمال معينة.

ومن أعمالهم:

- كتبة الأعمال: فقد أخبر الله تعالى أنهم {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٧، ١٨]
- عمل ملك الموت الذي يقبض الأرواح.
- عمل الملك الذي يتسور على الجنين في بطن أمه؛ فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد؟
- المعقبات: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد: ١١].
- وأشرف أعمالهم: أمانة الوحي، وهذه مهمة جبريل: { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].
- عمل ميكائيل: الذي هو النزول بالقطر من السماء، وإنبات الأرض.
- عمل إسرافيل: الذي هو النفخ في الصور؛ فتعود الأرواح إلى الأجساد التي كانت تعمرها في الدنيا.

وبالجملة فملائكة الرحمن قد أسندت إليهم مهام متعددة متنوعة متخصصة؛ فنؤمن بما صح به الخبر.

الإيمان بالكتب –والرسل و....الإحسان

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

❖ **الركن الثالث: الإيمان بالكتب**، ولا يتم إيمان امرئ بالكتب حتى يحقق أمورًا أربعة:

(1) سنن أبي داود (٤٧٢٩) صححه الألباني.

الأمر الأول: الإيمان بأنها منزلة من عند الله حقًا: القرآن التوراة الإنجيل الزبور صحف إبراهيم وموسى، هذه الكتب ليست من كلام آدمي؛ بل هي وحي يوحى أنزله الله تعالى على أنبيائه، فهذه أعظم خصيصة لها أنها منزلة من عند الله حقًا.

الأمر الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه، وما لم نعلم اسمه فإننا نؤمن به إجمالًا، فالذي نعلمه من كتب الله: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وصحف إبراهيم، وصحف موسى على خلاف هل صحف موسى هي التوراة، أم أنها فقط ما تضمنت من الوصايا العشر؟ فما علمنا اسمه آمنا به باسمه، لا نسميه كما تسميه النصارى واليهود: العهد القديم، والعهد الجديد، لا، بل التوراة والإنجيل هكذا.

الأمر الثالث: الإيمان بما صح من أخبارها، وهذه مسألة مهمة، وذلك أن كتب الله عز وجل قد امتدت إليها يد التحريف سوى القرآن، فما صح من أخبار الكتب الماضية وثبت؛ فإننا نؤمن به، وأما ما لم يثبت فلا، لا يلزمنا ذلك، ونحن نعلم أن الله تعالى قد حفظ القرآن العظيم فقال : {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: ٩] ، أما ما تقدمه من الكتب؛ فقد أخبر الله تعالى عن أهل ذلك الكتاب {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا }؛ فتوعدهم؛ فقال: {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}. [البقرة: ٧٩]

❖ **وموقفنا من الإسرائيليات –وهي المأثور من كتب أهل الكتاب في التوراة وفي الإنجيل– لا يخلو من ثلاثة أحوال:**

الحال الأولى: أن تكون موافقة لما جاء في كتابنا؛ فنؤمن به ونصدقه؛ لأن كتابنا يشهد له، **فمثلًا:** جاء في التوراة: ذكر الطوفان، وخروج موسى عليه السلام بقومه من مصر، وانشقاق البحر؛ فموقفنا من هذه الأخبار: أن نؤمن بها ونصدق؛ لأن كتابنا جاء مؤيدًا لها مصدقًا لها، وإن كان لا يلزمنا الإيمان بالتفاصيل التي يذكرونها؛ لكن نؤمن بأصل القضية.

الحالة الثانية: أن تكون مخالفة لما جاء في كتابنا؛ فنرده ونرفضه ونعلم أنه مما أدخلوه وحرفوه بأيديهم؛ **فمثلًا:** جاء في كتبهم –والعياذ بالله– أن لوطًا عليه السلام شرب الخمر وزنى بابنتيه – وحاشاه صلى الله عليه وسلم –أنا قرأت هذا بنفسي وبعيني رأسي في كتبهم– ؛ فموقفنا من مثل هذا الخبر: أن نكذبه ونرفضه ونعلم أن هذا مما أدخلوه في كتب الله؛ فنرده.

الحال الثالثة: أن لا يكون في كتابنا ما لا يصدقه وما لا يكذبه؛ فحينئذٍ لا نصدق ولا نكذب ونقول: آمنا بما أنزل الله من كتاب، وهذا كثير جدًا وغالبه لا طائل من ورائه؛ كأن مثلًا يختلفوا في اسم الكلب الذي تبع أهل الكهف وصفته ولونه وما إلى ذلك؛ فهذا مما لا حاجة لنا به، ولكننا لا نصدق ولا نكذب، أو يأتي أخبار وقصص ونحو ذلك؛ فالمنهج في هذا النوع الذي لا نصدق ولا نكذب به: هو جواز الرواية والتحديث به؛ لقول النبي –صلى الله عليه وسلم– :

(وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ)[1]، ولكن لا نقطع بثبوته ولا بنفيه كما في الحديث: (مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ فَإِنْ كَانَ بَاطِلاً لَمْ تُصَدِّقُوهُ وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُ)[2].

فمنهج السلامة أن لا نتسرع بتصديق ولا تكذيب، أما ما شهد كتابنا بصحته؛ فإنا نؤمن به لثبوت ذلك في كتابنا، وما شهد كتابنا بنقضه؛ فإننا نرفضه لأن كتابنا شهد بنقضه.

الأمر الرابع: هو العمل بالشرع المنزل إلينا في كتابنا وهو القرآن العظيم، و لم نقل في هذا المقام العمل بالشرائع السابقة؛ لأن كتابنا القرآن العظيم ناسخ للكتب السابقة مهيمن عليها، وذلك أن الله تعالى في سورة المائدة -لما ذكر التوراة ثم ذكر الإنجيل- قال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: ٤٨] ، ومعنى مهيمنًا عليه: أي حاكمًا وقاضيًا وناسخًا؛ فلا يجوز لأحد أن يعمل بشريعة التوراة ولا بشريعة الإنجيل؛ لكن إن أقر شرعنا ما جاء في التوراة أو الإنجيل؛ فإننا نعمل به لإقرار شرعنا له، **ومثال ذلك**: قوله تعالى عن التوراة {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ } [المائدة: ٤٥] فهذا مكتوب في التوراة وأقره شرعنا وزاد عليه شرعنا: {فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } [المائدة: ٤٥] ، و لم يكن ذلك في شرعهم.

❖ **الركن الرابع: الإيمان بالرسل**، ولا يتم إيمان امرئ بالرسل حتى يحقق أمورًا أربعة:

الأمر الأول: الإيمان بأن رسالتهم من عند الله حقًا، يعني اصطفاء واختيار من الله عز وجل، وأن هذه الرسالة لا تحصل بالرياضة والمجاهدة -كما زعم ذلك زنادقة الصوفية-؛ فإن زنادقة الصوفية يزعمون أن النبوة ممكن تكتسب بالرياضة والمجاهدة حتى تسمو النفس وتصل إلى مرتبة النبوة، كذبوا بل النبوة والرسالة محض اصطفاء من الله عز وجل قال الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج: ٧٥] ، وقال تعالى {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: ١٢٤] ، ونعى الله تعالى على المشركين أن قالوا: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [الزخرف: ٣١، ٣٢].

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه من رسل الله باسمه، ومن لم نعلم اسمه؛ فإننا نؤمن به إجمالًا، ورسل الله كثر؛ لأن الله تعالى يقول: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر: ٢٤] ، { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [النحل: ٣٦] ، فمن علمنا اسمه منهم؛ آمنا باسمه، ومن لم نعلم اسمه؛ فإنا نؤمن به إجمالًا، وقد ورد من أسماء الأنبياء والمرسلين في القرآن العظيم خمسة وعشرون نبيًا رسولًا؛ فهؤلاء نؤمن بهم بأسمائهم، أما من لا نعلم اسمه

(١) صحيح البخاري (٣٤٦١).

(٢) سنن الترمذي (٣٦٤٦) وضعفه الألباني.

منهم؛ فإننا نؤمن بأن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسول وكفى؛ ولهذا إذا مرت بنا بعض الأسماء التي في كتب أهل الكتاب مثل أشعياء أرميا حزقيال يوشع أو يسوع إلى غير ذلك؛ فإننا لا نقطع بذلك؛ لكن نؤمن أن الله تعالى بعث رسلًا كثرًا إلى أقوامهم.

الأمر الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم، واعلموا أنه لا يوجد سند متصل إلى نبي من أنبياء الله إلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن هذه الأمة قد مَنَّ الله تعالى بها عليها بالرواية بالإسناد؛ فتجد الأسانيد المتصلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تجد هذا في الأمم الأخرى، قد نسخت أسانيدها لكن ربما حدثنا نبينا بشيء من ذلك: كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ)[1]، إذن نؤمن بما صح من أخبار الأنبياء السابقين.

الأمر الرابع: العمل بشريعة من بُعث إلينا منهم، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فنحن وجميع البشر مأمورون باتباع والعمل بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف: ١٥٨] ؛ فلا يسعُ أحد بعد بعثة محمد-صلى الله عليه وسلم إلا أن يتبعه، وفي "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه:(وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِىٌّ وَلاَ نَصْرَانِىٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)[2]، هكذا ما في أوضح من هذا التعبير، وتعجب حينما تجد من الناس، بل من بعض من ينتسب إلى الإسلام من يقول: لليهودي وللنصراني أن يبقى على نصرانيته كل يعبد الله كما يشاء، إن هذا من قول الله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥] ، ومن الحديث الذي ذكرناه آنفًا: :(وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ -يعني أمة الدعوة- يَهُودِىٌّ وَلاَ نَصْرَانِىٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ).

❖ **الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر**، ولا يتم إيمان امرئ باليوم الآخر حتى يحقق أمورًا أربعة:

الأمر الأول: الإيمان بما يكون في القبر؛ لأن حقيقة اليوم الآخر يبتدئ من خروج الروح يعني مما بعد الموت كما قال شيخ الإسلام في "الواسطية": "ومن أصول أهل السنة والجماعة: الإيمان باليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت)، أو نحو من هذا، **والذي يكون في القبر أمران**:

الأمر الأول: فتنة القبر: والمراد بها سؤال الملكين للميت عن دينه وربه ونبيه؛ لأن فتنة معناها في اللغة :الاختبار، كما يقال: فتن الصائغ الذهب إذا أدخل الذهب المخلوط بالمعادن والأوشاب الأخرى في النار فتساقط؛ فلا يبقى إلا

(١) صحيح البخاري (٣٤٨٣).

(٢) صحيح مسلم (١٥٣).

الذهب الخالص، وهذه فتنة، ابتلاء، اختبار، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (أما إنكم تفتنون في قبوركم قريبًا من فتنة المسيح الدجال).

الأمر الثاني: نعيم القبر وعذابه: وذلك أن المؤمن ينعم في قبره إلى أن تقوم الساعة ،والكافر يعذب في قبره إلى أن تقوم الساعة.

الأمر الثاني: الإيمان بالبعث: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى يخرج الناس من قبورهم يوم القيامة حفاة: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غُرلًا: غير مختونين، بُهمًا: أي ليس معه شيء، والإيمان بالبعث: البعث الجسماني لا كما يدعي بعض الملاحدة أنه بعث روحاني؛ فهو بعث بالروح والبدن معًا، {يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ }[القمر٦-٨] هذا من أصول الإيمان.

الأمر الثالث: الإيمان بالحساب: وهو أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس يوم القيامة، **والحساب نوعان: حساب المؤمنين وحساب الكافرين:**

- **فأما حساب المؤمنين؛ فهو على نوعين أيضًا:** أحدهما العرض، والثاني المناقشة:

فالعرض يكون لمن سبقت له من الله الحسنى ممن أراد الله كرامته، ويدل عليه حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ)[1]، ما أسعده، ما أهنأه، نجا، زُحزح عن النار.

أما المناقشة: فهي التي تكون لعصاة الموحدين الذين ارتكبوا كبائر لم يشأ الله تعالى أن يغفرها؛ بل أراد أن يعذبهم عليها بقدر ذنوبهم ثم يؤولون إلى الجنة.

والدليل على هذا التقسيم: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يومًا : (لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ [فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا] قَالَ ذَاكَ الْعَرْضُ يُعْرَضُونَ وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَك)[2]، يعني من يُدقق معه في المحاسبة؛ فهذا دليل على أنه سيعذب بذنبه -أجارنا الله وإياكم-.

- **أما حساب الكافرين؛** فليس حساب من توزن حسناته وسيئاته؛ لأنه لا حسنات لهم أصلًا، ليس لهم حسنات حتى يدخلوا في الموازنة بين الحسنات والسيئات، وإنما يقررون بذنوبهم؛ فيعترفون بها على رؤوس الأشهاد ثم يلقى بهم في النار.

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٤١).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٣٩).

الأمر الرابع: الإيمان بالجنة والنار: لا يتم إيمان امرئ باليوم الآخر حتى يؤمن بالجنة والنار: أن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الجنة هي الدار التي أعدها الله لأهل كرامته، وأن النار هي الدار التي أعدها الله لأهل مهانته، وأن في الجنة من صنوف النعيم الحسي والمعنوي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأن في النار كذلك من صنوف العذاب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر -أجارنا الله وإياكم-.

❖ **الركن السادس: الإيمان بالقدر،** ولا يتم إيمان امرئ بالقدر حتى يحقق أمورًا أربعة:

الأمر الأول: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء، جملة وتفصيلًا، أزلًا وأبدا، يعني ما كان وما يكون وما سوف يكون وما لم يكن كيف لو كان يكون: هذه مرتبة العلم، سواء ما تعلق بأفعاله سبحانه، أو ما تعلق بأفعال عباده، فمعنى هذه المرتبة: أن يعتقد الإنسان اعتقادًا جازمًا بأن الله لا تخفى عليه خافية، وأنه علم ما الناس عاملون من خير وشر وطاعة ومعصية، كما علم أرزاقهم وآجالهم.

الأمر الثاني: الإيمان بكتابة الله تعالى لعلمه ذلك في اللوح المحفوظ، كما قال الله عز وجل {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢٢] ، وكما قال سبحانه: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [الرعد: ٣٩] الذي هو اللوح المحفوظ، وكما قال نبيه صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)(١)، جميع مقادير الخلائق، لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا وقد كتبه الله تعالى قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة حتى العجز والكيس، يعني حتى الصفات النوعية للناس من كون بعض الناس فيه صفة العجز، وبعضهم فيه صفة الحزم، كل شيء قد كتبه الله، لما خلق الله القلم قال له أكتب قال: يارب ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة).

الأمر الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يكون شيء إلا بإرادته ومشيئته.

الأمر الرابع: الإيمان بخلقه سبحانه لجميع الأشياء، ذواتها وصفاتها وحركاتها؛ فالله خالق وما سواه مخلوق، ما في أحد يخلق مع الله، ليس العبد يخلق فعل نفسه، الله خالق كل شيء، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢]

إذن هذه الأمور الأربعة هي أركان الإيمان بالقدر، لا يتم إيمان امرئ بالقدر حتى يحقق هذه الأمور الأربعة، وبهذا نكون قد أتينا على هذا التشجير المبارك: شجرة الإيمان التي جعلنا لها ستة فروع، ولكل فرع أربعة أغصان، فتصوروا هذه الشجرة المباركة، واحفظوها دائمًا في أذهانكم بحيث إذا أردتم أن تعرفوا بدينكم وإيمانكم أن تعرضوها على هذه الصفة.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣).

الدليل على مسألة الإيمان في القرآن العظيم: لو نظرنا في القرآن العظيم؛ لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر خمسة من الأركان مجتمعة في موضعين؛ فقال سبحانه: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: ١٧٧] هذه خمسة بقي القدر، ودليل القدر: قوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر: ٤٩] ، وفي آية أخرى قال: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء: ١٣٦] فذكر الخمسة مجتمعة، وفي آخر سورة البقرة ذكر أربعة منها: {كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: ٢٨٥] ، أما حديث جبريل؛ فقد جمع الستة؛ فالدليل قائم صريح على هذا.

نختم بالمرتبة الثالثة: وهي الإحسان، وقد عرفها النبي صلى الله عليه وسلم: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)(١)، ومعنى ذلك: أن الإحسان مرتبة أخص من الإيمان، ومعنى الإحسان في اللغة: الإتقان: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه)، فسرَّه النبي صلى الله عليه وسلم بمرتبتين:

المرتبة الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه.

المرتبة الثانية: فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك.

قال العلماء: المرتبة الأولى: مرتبة الطلب، والمرتبة الثانية: مرتبة الهرب، ومرتبة الطلب أشرف من مرتبة الهرب؛ فأنت تعبد الله كأنك تراه: أي تعبد الله تعالى وأنت تسعى إليه مشتاق إليه منجذب إليه؛ فيكون آداؤك للطاعات والعبادات يحدوه حاد المحبة الرجاء؛ فإن لم يصل الإنسان إلى هذه المرتبة العليا التي هي مرتبة العبادة: عبادة الفرِح المشتاق المنجذب إلى ربه ومعبوده؛ فإن دونها مرتبة: فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك: وهذه هي مرتبة الهرب أي يعبد الله بروح العبد المشفق الخائف من رقابة الله تعالى واطلاعه عليه، كما الموظف الذي يتقن عمله لعلمه أن رب العمل يطلع عليه من خلال الكاميرات أو من خلال ملاحظته أو نحو ذلك، ولا شك أن كلًا من هاتين الحالين يثمران إحسان العمل ثم الذي يعبد الله كأنه يراه يتقنه ويحسنه ويكون هذا مصحوبًا بالشوق لله عز وجل، والذي يعبد الله وهو يشعر برقابته كذلك يتقنه؛ لأنه خائف من الله عز وجل.

وبذلك تمت مراتب الدين الثلاثة.

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ: وله رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما في الحديث: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الّذِينَ اتَّقَواْ وَّالّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(١) صحيح البخاري (٥٠)، صحيح مسلم (٨).

﴿[الشعراء: ٢١٧ – ٢٢٠]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

هذه الأدلة الثلاثة من القرآن تدل على معية الله تعالى لعبده المؤمن؛ فالله تعالى يقول: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } [النحل: ١٢٨] ؛ فهذه معية خاصة، وقوله: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء: ٢١٧ – ٢١٩] ، أيضًا يدل على شعور المؤمن بمعية الله ورقابته، وكذلك ما جاء في الآية الأخيرة كلها دالة على إثبات هذه المرتبة من الدين، وهي مرتبة الإحسان.

والله أعلم.

الأصل الثالث

قال المؤلف –رحمه الله–: الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النبوة. نُبِّئَ بِـ ﴿اقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ بِـ ﴿الْمُدَّثِّرْ﴾، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وهاجر إلى المدينة.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد؛

فهذا هو الأصل الثالث العظيم من الأصول التي يسأل عنها الإنسان في قبره: وهو معرفة نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فإن الملكين يسألان الميت في قبره عن نبيه: من هذا الرجل الذي بعث فيكم؟؛ فلا بد أن ينطوي قلب المؤمن بعلم بين على شخص رسول الله –صلى الله عليه وسلم، ولا ريب أن لنبينا صلى الله عليه وسلم مترلة عظيمة في قلوب المؤمنين كيف لا؟! وهو المفتاح الذي فتح الله تعالى به أعينًا عميًا وقلوبًا غلفًا وآذانًا صمًا، امتن الله ببعثته على أوليائه فقال: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }آل عمران؛١٦٤ فحري بنا –معشر المؤمنين– أن نعرف طرفًا من سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم ونحيط بها علمًا؛ فابتدأ الشيخ –رحمه الله– بذكر بعض الجمل العامة عن نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فقال: **وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ:** هذا نسبه؛ فلا ريب أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أحدًا: أن يُعرِّف به ابتداءًا بنسبه، فأنت إذا لقيت أحدًا وأردت أن تتعرف عليه تقول له: من الأخ؟؛ فيقول: فلان بن فلان الفلاني؛ فربما انتسب إلى قبلته، وربما

انتسب إلى بلده؛ فتعرفه بهذه النسبة؛ فهو محمد، وقيل: أنه هو أول من سُمي بهذا الاسم –محمد–، والواقع أن أسماء نبينا صلى الله عليه وسلم أعلام وأوصاف، كما أن أسماء الله الحسنى أعلام وأوصاف.

ومعنى قولنا: أعلام وأوصاف: أعلام أي دالة على شخصه وذاته، وأوصاف أي أنها صفات متحققة فيه؛ فأسماء الله الحسنى أعلام وأوصاف، أعلام: من حيث دلالتها على ذات الله المقدسة سبحانه وبحمده؛ فهو سبحانه الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام العزيز ... إلخ ، كل هذه الأسماء الحسنى تدل على ذات الرب، وهي أيضًا أوصاف ليست مجرد أعلام محضة؛ بل هي تدل على ما تضمنته من معاني، كذلك أيضًا أسماء نبينا صلى الله عليه وسلم أعلام وأوصاف؛ فهي أعلام لدلالتها على شخص ذلك النبي الكريم، فإذا قيل :محمد أو قيل: أحمد، أو قيل: الحاشر، أو قيل: العاقب، أو غير ذلك من الأسماء التي ثبتت في السنة؛ فهي كلها دالة على ذات ذلك النبي، وهي أيضًا أوصاف: أي أن كل اسم منها يدل على وصف مميز يختلف عن الأوصاف الأخرى؛ فهو صلى الله عليه وسلم محل للحمد؛ فهو يحمد من قِبل الناس لما جُبل عليه من الأخلاق الكريمة والخلال الحميدة؛ بل هو أحمدهم ؛ولذلك كان أحمد، وهو الحاشر، وهو العاقب كما سمى نفسه صلى الله عليه وسلم، في حين أن أسماء الناس أعلام ولا يلزم أن تكون أوصاف، فربما سمي واحد من الناس صالح، وهو في الحقيقة طالح، وربما سمي أمين، وهو من أسرق الناس، وربما سمي شجاع، وهو من أجبن الناس أليس كذلك؟!، إذن أسماء الناس أعلام ولا يلزم أن تكون أوصافًا، أما أسماء نبينا صلى الله عليه وسلم، فهي أعلام وأوصاف، قل مثل ذلك في أسماء القرآن، وقل مثل ذلك في أسماء القرآن في أسماء القيامة، وطِبق عليها هذه القاعدة.

قوله: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: عبد الله أبوه توفي وهو بعدُ حمل؛ فلم يدرك أباه؛ فولد يتيمًا صلى الله عليه وسلم، وكذا أمه توفيت وهو بعد صغير، ودفنت في الأبواء بين مكة والمدينة، وينبغي أن نعلم أن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم ماتا على جاهلية، عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله أين أبي ؟ (قَالَ: فِى النَّارِ). فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ فَقَالَ: (إِنَّ أَبِى وَأَبَاكَ فِى النَّارِ)[1]، كما في الصحيح، ولما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالأبواء بين مكة والمدينة –وهو موضع دفنت فيه أم النبي صلى الله عليه وسلم– آمنة بن وهب، استأذن ربه أن يزور قبر أمه؛ فأذن له أن يزور قبرها، ولم يأذن له أن يستغفر لها، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه وقام عليه وبكى وأبكى من معه وكانوا أربعمائة، وهذا يدل على عظم أمر الدين والعقيدة يقول الله عز وجل: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ

(١) صحيح مسلم (٢٠٣).

إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٣، ١١٤] ، وهذا يدل على أن أعظم رابطة هي رابطة الإيمان، لا تقدم عليها رابطة نسب ولا عشيرة ولا أخوة ولا صداقة؛ فرابطة الدين مقدمة على كل رابطة.

أما عبد المطلب فجده، وهو أشرف العرب في زمانه، وهو الذي حفر بئر زمزم وأعادها؛ فكان سيد العرب وسيد قريش.

قوله: وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ: هاشم جده الأعلى، وهو من قريش، ولا ريب أن نسب نبينا صلى الله عليه وسلم محفوظ معروف منقول إلى عدنان، وأما ما بعد عدنان؛ فإنه لا يثبت، ويكفي للإنسان أن يعرف هذا القدر من نسب النبي صلى الله عليه وسلم: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

قوله: وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ: قريش هي القبيلة العربية المقدمة المفخمة التي مكنها الله تعالى من سدانة البيت، وقد كان البيت في يد قباعة، ثم بعد ذلك حاربهم قُصي بن كلاب، وتمكن من البيت واستولى عليه وقسم الرفادة والسقاية ودار الندوة والحج وغير ذلك بين أولاده؛ فكان من نصيب بني هاشم سقاية الحاج؛ فهذه القبيلة قبيلة عربية شريفة، وقد جاء في الحديث: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)[1]؛ فهو خيار من خيار من خيار، فلا شك أن نبينا صلى الله عليه وسلم كغيره من الأنبياء بُعث في نسب من قومه، قال الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]، وفي قراءة: {مِنْ أَنْفَسَكُمْ}.

قوله: وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ: وإسماعيل عليه السلام نبي من أنبياء الله، وهو ابن خليل الرحمن إبراهيم.

قوله: ابْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ: وهذه من حكمة الله البالغة؛ فإن الله سبحانه وتعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يضع بعض أهل بيته بواد غير ذي زرع؛ فاحتمل هاجر سُريته ومعها ابنها إسماعيل، ووضعهم في ذلك الوادي لأمر ادخره الله تعالى للبشرية لهذه الأمة في آخر الزمان، وصار عليه الصلاة والسلام يتردد بين هذين الفرعين: بين فرع إسحاق وفرع إسماعيل، وكان الأنبياء من فرع إسحاق؛ فظلت النبوة في بني إسرائيل قرونًا متطاولة، ولم يكن في العرب أنبياء من لدن إسماعيل عليه السلام إلى أن بعث الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ فآل أمر النبوة في فرع إسماعيل ممثلًا بنبينا صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم، وكل هؤلاء ذرية إبراهيم، {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦]: يعني في ذرية نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٧٦).

إذن هذا هو نسب نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذه بيئته؛ فقد كان في مكة -أم القرى-، ومحط أفئدة المؤمنين ليس من العرب فقط بل من العالمين، لولا أن أهل الكتاب طمثوا هذه المزية، وإلا فاعلموا أن مكة مذكورة مشهورة في كتب أنبياء بني إسرائيل، وأنه ما من نبي إلا وحج البيت، ما من نبي من أنبياء الله إلا ويعلم أن لمكة مزية وفضلًا، وأنها محل البيت الحرام؛ لكن اليهود والنصارى أخفوا هذه الحقيقة، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، أن أنبياء الله حجوا البيت، حتى قال: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ مُهْبِطًا لَهُ خُوَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّكْبِيرِ ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةٍ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ الثَّنِيَّةُ ؟ قَالُوا : ثَنِيَّةُ كَذَا وَكَذَا ؟ فَقَالَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ خِطَامُهَا لِيفٌ وَهُوَ يُلَبِّي ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ صُوفٌ)[1]؛ وكان صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى الحج، وقد بلغ فج الروحاء؛ فقال: (وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا)[2]، وهذا يكون في آخر الزمان عندما ينزل عيسى بن مريم؛ فيحج بيت الله الحرام، وقد جاء في حديث حسنه الإمام الألباني -رحمه الله- في فضائل مسجد الخِيف: (أنه صلى فيه سبعون نبيًا)[3]؛ فثقوا تمام الثقة أن هذا البيت الحرام، وهذه المدينة المشرفة المعظمة مكة مذكورة في كتب أنبياء الله، مقصودة منهم بالحج؛ إلا أن الحسد أعماهم؛ فطمثوا ذكرها وأرادوا أن يحصروا الأمر فيهم وفي أممهم، لكن الله غالب على أمره؛ فبعث الله نبيه في أخريات الزمان من العرب، وقد كان اليهود قصدوا المدينة بناءً على معرفتهم بأوصاف مهاجره: أن النبي الخاتم يبعث في أرض ذات حِراء؛ فجاءت طائفة منهم واستوطنوا المدينة؛ لأنها رأوا انطباق الصفات عليها يأملون أن يبعث النبي الخاتم منهم، وكانوا يستفتحون على العرب إذا وقع بينهم وبينهم خصومة، كانوا يقولون: للأوس والخزرج لقد أظلنا زمان نبي نقاتلكم معه؛ فيفتح علينا، قال الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة: ٨٩]، كل هذه الدلائل تدل على أن أهل الكتاب يعلمون أن لهذه المنطقة، ولهذه الجزيرة، ولمكة شرَّفها الله منزلة خاصة.

قوله: وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النبوة: هذه كما يقال في لغة العصر: السيرة الذاتية لعمر نبينا صلى الله عليه وسلم: ثلاث وستون سنة: أربعون سنة قبل البعثة، وهذا من حكمة الله البالغة أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل عليه الوحي إلا أن بلغ أشده؛ لأن الأربعين هي

(١) المستدرك للحاكم (٣٣١٣)،وقال هذه حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه.

(٢) صحيح مسلم (١٢٥٢).

(٣) المستدرك للحاكم(٤١٦٩)، الطبراني في المعجم الكبير (١٢٢٨٣)، الأوسط (٥٤٠٧)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن لغيره.

سن كمال الرجولة والقوة البدنية والعقلية؛ ولذا يقول الله عز وجل: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف: ١٥]؛ فسن الأربعين سن مميزة، وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم طوال هذه الأربعين سنة على أنبل الصفات، وأكرم الطباع، وكان مضرب المثل في قومه في الأمانة والصدق، حتى إنهم كانوا يلقبونه بالأمين، ولما تنازعوا عندما أعادوا بناء البيت من يضع الحجر في موضعه قالوا: نحكم أول داخل؛ فكان أول داخل نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فصاحوا الأمين الأمين، فأقبل عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، وبسط ثوبًا ووضع الحجر فيه وأمر أحياء قريش الأربعة أن يمسك كل منهم بطرف ثم احتملوه ثم أخذه بيده الشريفة فوضعه في موضعه؛ فقد كان له الذكر الحسن في الأمانة، وكان الناس يضعون أماناتهم عنده لما يعلمون من صدقه وحفظه، ولم يُدعى إلى محمدة وحلف في الجاهلية فيه نصرة للمظلوم وفكاك للعاني إلا ودخل فيه صلى الله عليه وسلم إلى أن أتم الله عليه نعمته وكان صلى الله عليه وسلم؛ لصحة فطرته وسلامة قلبه يتأمل ويبحث عن الحق؛ حتى إنه صار يتحنث – أي يتعبد– الليالي ذات العدد في غار حراء قبل أن يأتيه الوحي؛ لأنه يدرك أن ما عليه قومه باطل؛ ولهذا لم يسجد لصنم قط، ولم يشرب خمرًا قط في الجاهلية، فكان يأوي إلى غار حراء، ويتأمل في هذا الكون إلى أن أذن الله تعالى له بهذا الفتح العظيم؛ فلما أن بلغ الأربعين أتاه الوحي من الله عز وجل، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ} "فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي " فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي" فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ"، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ)[1].

انظر للمرأة العاقلة قالت: والله لا يخزيك الله أبدًا؛ فاستدلت بهذه القرائن على أن الله تعالى لا يمكن أن يخذل من هذه صفته، وكانت مطمئنة، وأرادت أن تثبت ذلك بذهابها إلى ورقة بن نوفل الذي كان عنده علم من الكتاب، أو كما قال، وطمأنه وثبته ثم بعد ذلك استمر الوحي كما نعلم في السيرة، مكث النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر سنة في مكة يدعو إلى الله سرًا في بداية الأمر، ثم جهرًا وهذا من الحكمة في الدعوة أنه بدأ بالدعوة السرية لكي يستكثر من الأتباع ويكوِّن قاعدة معه، ثم بعد أن تكون معه جملة من السابقين إلى الإسلام على رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ جهر بالدعوة بعد أن دخل فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحمزة بن عبد المطلب؛ فخرجا صفين يطوفان بالبيت يتحديان قريشًا؛ فكانت مدة الفترة المكية ثلاث عشرة سنة، ثم أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة؛ فهاجر إلى المدينة، وبقي فيها عشر سنين: هذا مجمل حياة نبينا صلى الله عليه وسلم.

أول الدعوة

قوله: نُبِّئَ بـ ﴿اقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ بـ ﴿الْمُدَّثِّرْ﴾: لأن النبوة حصلت بنزول الوحي عليه؛ فحصلت النبوة فقيل له: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر: ١ - ٧]نبأ باقرأ : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥]؛ فكانت هذه الآيات إيذان بنبوته صلى الله عليه وسلم، ثم أرسل بالمدثر: أي بعث إلى الناس لدعوتهم إلى الدخول في دين الله في آيات المدثر التي تلوناها، **وينبغي أن نعرف الفرق بين النبي والرسول**، وللعلماء في هذا ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن النبي: هو من أوحي إليه بشرع و لم يؤمر بتبليغه، والرسول: هو من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، وهذا فرق واضح، ويأتي على هذا التفريق في الحقيقة استدراك مهم: وهو كيف يوحى إلى النبي بشرع ولا يؤمر بتبليغه؟ ما فائدة ذلك إذن؟؛ فقيل قول آخر في التفريق بين النبي والرسول.

---

(١) صحيح البخاري (٣).

القول الثاني: أن الرسول: هو من أوحي إليه بشرع جديد وأُمر بتبليغه، والنبي: هو من أوحي إليه بشرع نبي قبله وأُمر بتجديده، أي أن الرسول يوحى إليه بشريعة جديدة: كموسى وعيسى ومحمد عليهم صلوات الله وتسليمه، وأما النبي فهو يأتي تبعًا للرسول السابق، إذا اندرس العلم واحتاج الناس إلى الحكم بينهم في قضاياهم فيبعث الله نبيًا؛ لكي يجدد ما اندرس من رسالة الرسول الذي قبله، ويؤكدون بذلك بأنبياء بني اسرائيل: كيوشع بن نون ومن يسمونهم في كتبهم أرميا وحزقيال وغيرهم من أنبياء بني اسرائيل المذكورين في كتبهم، لكن هذا التفريق عليه استدراك: وذلك أن الله سمى يوسف عليه السلام رسولًا في كتابه مع أنه لم يوحَ إليه شرع جديد؛ فإن مؤمن آل فرعون قد قال لقومه: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} [غافر: ٣٤]؛ إذن قد كان يوسف عليه السلام رسولًا -مع أنه لم يوحَ إليه شرع جديد-؛ بل كان يعمل بشريعة أبيه وجده يعقوب وإسحاق وإبراهيم.

القول الثالث: أن الرسول: هو من بعث إلى قوم مخالفين لدعوتهم، سواء كان ذلك بشرع قديم أو بشرع جديد، وأن النبي: هو من بعث إلى قوم موافقين -أي مؤمنين- لتعلميهم والقضاء بينهم، فهذا في الحقيقة لعله أسلم التعريفات وأرجحها، وهو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-في كتابه "النبوات".

قوله: وَبَلَدُهُ مَكَّةُ: وهي أم القرى، ولها من الفضائل ما لا يخفى: يكفي أنها تضم المسجد الحرام الذي صلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما عداه من المساجد.

وقد هاجر النبي صلى الله عليه وسلم-إلى المدينة بعد أن مكث بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو الناس بكل ما وسعه من أنواع الدعوة؛ لكنها دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وقد لاقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في هذه الفترة المكية من العنت والمشقة الشيء العظيم، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم إرفاقًا بأصحابه دعاهم إلى الخروج إلى الحبشة؛ لكي يأمنوا على أنفسهم وعلى دينهم؛ فخرج إلى الحبشة من خرج في هجرتين معروفتين، وبقي نبينا صلى الله عليه وسلم يدعو أهل مكة ويصبر منهم على الأذى حتى كان يلقى منهم الأذى العظيم، سألته عائشة رضي الله عنها يومًا فقالت: (يا رسول الله ما أشد ما لقيت من قومك؟، قال: إني أتيت بني عبد لي ثلاثة أخوة من وجهاء قريش فدعوتهم إلى الإسلام؛ فقال أحدهم: أما وجد الله أحدًا غيرك حتى يرسله؟، وقال الثاني: أمزق أستار الكعبة إن كان الله أرسلك، أما الثالث قال: إن كان الله أرسلك فلأنت أعظم في عيني من أن أرد عليك، وإن كان الله لم يرسلك فلأنت أحقر في عيني من أن أرد عليك، ثم قام وتركه)، وهذا ما يسمى عند العلماء بكفر الإعراض، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقمت أهيم على وجهي من الهم والغم حتى بلغت قرن الثعالب -وقرن الثعالب موضع في مزدلفة - ليس هو قرن المنازل الميقات المعروف-، قال: (فإذا أنا بجبريل عليه السلام فسلم علي؛ فقال: يا محمد هذا ملك الجبال؛ فسلم عليه ملك الجبال، وقال: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، والأخشبان: الجبلان المحيطان بمكة: جبل أبي قبيس، وجبل قويقعة، فملك الجبال يعرض على نبينا صلى الله عليه وسلم-في هذا

الموقف المتأزم الذي يشعر فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالهم والغم والغيظ الشديد لهذه الإهانة وهذا الرد لدينه- أن يطبق عليهم الأخشبين، فقال-بأبي هو وأمي- صلى الله عليه وسلم: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)، {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]؛ فكان ما تمنى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إنه صلى الله عليه وسلم كان لا يدخر وسعًا في عرض دعوته؛ فكان يخرج إلى الموسم كل سنة -ولا يخفاكم أن العرب منذ زمن إبراهيم يحجون البيت على شركهم- ويعرض نفسه على القبائل، وكان يلحقه عمه أبو لهب ويقول: هذا مجنون قريش ينفرهم ويحذرهم منه، حتى لقي النبي صلى الله عليه وسلم نفرًا من الأوس والخزرج فعرض عليهم دعوته؛ فقبلوا ورغبوا ورحبوا وواعدوه الموسم القادم، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أَلاَ رَجُلٌ يَحْمِلُنِى إِلَى قَوْمِهِ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِى أَنْ أُبَلِّغَ كَلاَمَ رَبِّى)[1]، حتى وصل إلى هؤلاء الفتية من الأوس والخزرج، فلما كانت السنة التي تليها جاؤوا وكانت عدتهم سبعون؛ فواعدوا النبي صلى الله عليه وسلم في العقبة، وبايعوه بيعة العقبة، حتى إن الشيطان صرخ وقال: يا معشر الناس هذا محمد والصباة قد خرجوا عليكم؛ فأقبل هؤلاء الفتية من الأوس والخزرج وقال أبو مالك بن التيهان رضي الله عنه لنبينا صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله لو أمرتنا غدًا أن نميل على أهل منى بأسيافنا- يعني لفعلنا-؛ فقال: إنا لم نؤمر بعد، ثم انفضوا، وصار الصحابة من الأوس والخزرج من الأنصار يتحدثون ويقولون: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يطَّرد في جبال مكة خائفًا شريدًا، وعرضوا عليه أن ينتقل وأن يهاجر إليهم؛ فكان ينتظر الإذن من الله تعالى حتى أذن الله تعالى له بالهجرة كما سيأتي.

قوله: بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ:النذارة: هي الإعلان المصحوب بالتخويف، ولا شك أن الرسل مبشرين ومنذرين؛ فالله تعالى بعث نبيه بالنذارة عن الشرك؛ فقد كان يقول لهم: (أنا النذير العريان)، والنذير العريان عند العرب في الجاهلية: هو الذي يأتي محذرًا للقوم حتى يشقوا ثيابه ويتعرى؛ ليشعرهم بالجد؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا النذير العريان لو أخبرتكم أن خيلًا خلف هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد): هذا امتثال لأمر الله عز وجل في قوله: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] ؛ فقام على الصفا وأنذر عشيرته، وعم وخص: يا معشر قريش، يا عباس بن عبد المطلب، يا صفية عمة رسول الله، يا فاطمة بنت رسول الله؛ فعمَّ وخص ودعاهم: (لا أغني عنكم من الله شيئًا)، إذن بعثه الله بالنذارة عن الشرك.

قوله: وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ: إذن الدعوة إلى التوحيد بشارة في مقابل النذارة؛ لأن الدعوة إلى التوحيد يحصل بها البشرى والأنس واجتماع القلب والهم على عبادة الله الواحد القهار، والدليل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } [المدثر: ١]: يعني المتدثر بهذه الأغطية التي أردت أن تسكن بها، قم فأنذر: وهذا أمر له بالقيام حسًا ومعنى: القيام من رقدته وضجعته، والقيام بأمر الدعوة أيضًا، {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر: ٣ - ٧]: فسر المصنف -رحمه الله- هذه المفردات فقال: **وَمَعْنَى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ،**

(١) سنن أبي داود (٤٧٣٦)، سنن الترمذي (٢٩٢٥)، صححه الألباني.

وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ؛ لأن هاتين قضيتان متلازمتان لا يمكن أن يتحقق توحيد إلا بالبراءة من الشرك، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله لا بد منهما معًا.

قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾: أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ: إي والل،ه أعظم ما عظم الله تعالى به التوحيد؛ ولذلك كان أفضل الكلام لا إله إلا الله، (خير ما قلت أنا والنبيون قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له).

قوله: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾: أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ: فسر الشيخ -رحمه الله- الثياب هاهنا بالأعمال، وهذا أحد التفسيرين: أي طهر أعمالك من الشرك، وإنما سمى الأعمال ثيابًا؛ لملابستها للإنسان، واستدل العلماء أيضًا بهذه الآية على اشتراط طهارة الثوب من النجس والدنس في باب الطهارة في الفقه، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين: يعني على الطهارة المعنوية من الشرك، وعلى الطهارة الحسية من النجاسات، ولا شك أن المعنى بالطهارة المعنوية أقرب للسياق والمقام لكن لا يمنع أن يحتمل المعنى الخاص.

قوله: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: ٣٠] ؛ فالرجز: هي الأصنام، وهجرها يكون بتركها والتخلي عنها والبراءة منها، وكذلك أيضًا هجر أهلها: وهم المشركون، والبراءة منهم، والتخلي عنهم؛ فإن هذا من أصول الإيمان، كما قال الله عز وجل: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: ٤] ، هكذا الإيمان فيصل بين الحق والباطل، بين الشرك والتوحيد.

الهجرة

قال المؤلف -رحمه الله-: أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء: ٩٧-٩٩].

قوله: أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ: يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم أمضى عشر سنوات من الفترة المكية وهو يدعو إلى التوحيد، ثم بعد هذه العشر حصل حادث عظيم: وهو

العروج إلى السماء، وقد اشتدت عليه الأزمة والمحنة في آخر هذه العشر ؛ فقد توفيت زوجه خديجة التي كانت تسري عنه وتسليه عما يلقى من أذى قريش، وتوفي عمه أبو طالب الذي كان يحوطه ويدفع عنه – على أنه كان مشركًا–؛ فوقع للنبي صلى الله عليه وسلم آية عظيمة من آيات نبوته: وهي العروج به إلى السماء، فبينما كان النبي صلى الله عليه وسلم نائمًا في الحجر إذ أتاه جبريل عليه السلام ومعه دابة كالبغل أو أكبر من البغل يقال لها: البراق؛ فأمره أن يركب؛ فركب النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة، وكان خطوها إلى منتهى بصرها؛ فلأجل ذا بلغ بيت المقدس في تلك الليلة التي عرج بها، ووجد النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء قد جمعوا وحشدوا له؛ فأمهم في ذلك المكان، وذلك لإظهار فضله، وأنه سيد ولد آدم، وأنه إمام المرسلين؛ فأم أنبياء الله جميعًا، أما كيف كان ذلك؛ فهذا أمر الله عليه قدير أن يحضرهم في صفة من الصفات لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ فالذي أحياهم وأماتهم قادر على أن يعيدهم؛ فأمهم النبي صلى الله عليه وسلم في بيت المقدس {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الإسراء: ١] ، ثم بعد ذلك عرج به إلى السماوات العلى احتمله جبريل عليه السلام وذهب به في أجواز الفضاء أحوال أو أمور لا تدركها عقولنا، وصعد به إلى السماوات العلى حتى أنه كان يأتي إلى كل سماء فيستفتح ويفتح له؛ فوجد في السماء الأولى أبانا آدم عليه السلام، وعن يمينه أرواح المؤمنين، وعن شماله أرواح الكافرين من ذريته؛ فإذا التفت جهة اليمين ضحك، وإذا التفت إلى جهة الشمال بكى، وقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم ذهب إلى السماء الثانية فإذا فيها عيسى بن مريم عليه السلام، ويحيى بن زكريا، وهما ابنا الخالة، ثم رقى إلى السماء التي بعدها فوجد فيها لعله هارون عليه السلام، ثم بعد ذلك وجد في الرابعة إدريس، أو لعله العكس، ثم وجد في السماء الخامسة موسى بن عمران، وكلهم يرحب به ويقول: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح إلى أن بلغ السماء السابعة؛ فوجد فيها أباه إبراهيم وقد أسند ظهره إلى البيت المعمور، ثم بعد ذلك بلغ سدرة المنتهى وغشيها من الحسن والبهاء ما لا يستطيعه وصف: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [النجم: ١٦، ١٧] ، ثم بعد ذلك وقف جبريل عليه السلام وقال: هذا حدي لا أتجاوزه، وخطا النبي صلى الله عليه وسلم وتقدم إلى موضع سمع فيه صريف أقلام القدر، فأوحى الله تعالى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه الصلوات أول الأمر خمسين صلاة في اليوم والليلة، وهبط بهن صلى الله عليه وسلم–حتى مر بموسى عليه السلام؛ فسأله فأخبره فقال: إني عالجت بني اسرائيل قبلك وإن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فسأله التخفيف، فرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه فحط عنه خمسًا ورجع أدراجه فمر بموسى فقال له مثلما قال، ورجع إلى ربه فلم يزل يتردد بين موسى بن عمران عليه السلام وبين ربه عز وجل حتى بلغ خمسًا، وأمره موسى أن يرجع إلى ربه لكنه قال: (استحييت من ربي) فأمضى الله فريضته وقال: (هي خمس في الفعل خمسون في الميزان)[1]، ونزل النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصلوات الخمس.

(١) انظر: صحيح البخاري(٣٨٨٧).

قوله: وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ: إذن هذه الصلوات الخمس لم تفرض إلا في آخر ثلاث سنوات في مكة، وأول ما فرضت الصلاة ركعتان ركعتان، ثم بعد ذلك زيد في صلاة الحضر، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى، والذي يظهر -والله أعلم- أنه أيضًا لم تكن فرضت الجماعة، وإنما فرضت الجماعة والصلاة الرباعية بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

قوله: وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ: أي بعد هذه السنوات الثلات التابعة للعشر الأول، وبهذا تكون ثلاثة عشرة سنة، أُمر بالهجرة إلى المدينة، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن أمر ربه لا يمكن أن يهاجر إلا بإذنه؛ فأذن الله تعالى له بالهجرة، وكان قد شرع في إرسال أصحابه فرادى ومثنى إلى المدينة، وصاروا يصلون إلى المدينة أرسالًا يخرجون خفية إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فإنه قام في بطن مكة وقال: من أراد أن تثكله أمه فليلقني في بطن هذا الوادي؛ فلم يلحقه أحد -قوي أمين رضي الله عنه-، أما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد استشعر أبو بكر الصديق رضي الله عنه نية رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة؛ فأعد راحلتين وأعلفهما وأعدهما لهذه المناسبة؛ فلم يُر أبو بكر الصديق في ساعة الهاجرة، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم-يأتي فيها عادة كان يأتي إما أول النهار أو آخر النهار فأتى في ساعة لم يكن من عادته أن يأتي فيها مبالغة في الحذر والحيطة؛ فقال لأبي بكر الصديق: أخرج من عندك؛ لأن الأمر خطير، ولا بد من اتخاذ السرية؛ فقال: إنما هم أهل يا رسول الله؛ فقال: إنه قد أُذن لي بالهجرة؛ فقلت يا رسول الله: الصحبة، قال: الصحبة؛ فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، تقول عائشة: فما علمت أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يبكي ذلك اليوم، كيف لا يبكي؟!، وهو سيصحب محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ويكون له هذا الفخر العظيم إلى يوم القيامة، وفعلًا سرّبا هاتين الناقتين، وقد قال له النبي صلى الله عليه وسلم: آخذها بالثمن، وهذا يدل أنه في أمور الطاعات والقرب ينبغي أن يبذل الإنسان من ماله، وألا يعتمد على أعطيات الآخرين قدر المستطاع، فقال: هي لك يا رسول الله، قال: آخذها بالثمن، وكذا صنع النبي صلى الله عليه وسلم في بناء المسجد بعد أن هاجر، فالمهم أنهما سربا هاتين الناقتين وخرجا من الباب الخلفي؛ لأن أعين قريش كانت ترصدهما، وقد شعرت قريش فعلًا أن النبي صلى الله عليه وسلم على وشك الخروج، وأعدت للأمر عدة؛ فاجتمعوا في دار الندوة، وتشاوروا فيما بينهم حتى إنه قر رأيهم على أن ينتدبوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى جلدًا شابًا معه سيف ويحيط ببيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هم بالخروج ضربوه ضربة رجل واحد فتفرق دمه في القبائل، لكن الله تعالى أنجاه قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [يس: ٩] ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من بين ظهرانيهم، وأوى وصاحبه إلى غار يقال له: "غار ثور"، وباتا فيه ثلاثة أيام حتى ينقطع الطلب، وجعلت قريش لمن يأتي بالنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه مائة من الإبل- وهو عرض مغرٍ-، يتمناه كل عربي إذ الإبل هي أنفس أموال العرب، ولكن الله سلم؛ فظل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حين خروجه إلى أن بلغ المدينة عشرة أيام حتى بلغ المدينة يوم اثنين، وكان في هجرته صلى الله عليه وسلم يكمن نهارًا

ويسير ليلًا، وبذل أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ضروب الفداء والرعاية بنبينا صلى الله عليه وسلم، ما بلغه هذه الدرجة: أن كان أفضل هذه الأمة بعد نبيها، ومما جرى له أنهما دخلا غارًا في أثناء مسيرهما فقال؛ أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم: امكث يا رسول الله حتى أستحث لك الغار حتى لا يكون فيه سبع أو حية أو غير ذلك؛ فدخل رضي الله عنه حتى إذا استوثق دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم رأسه الشريفة على فخذ أبي بكر، وجعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتلمس الغار؛ فوجد فيه حجرين؛ فخشي أن يخرج منهما شيء يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فألقمهما عقبيه، فخرجت عقرب من أحد هذين الجحرين وجعلت تلسغ عقب أبي بكر الصديق وهو يتألم ولا يبدي حراكًا حتى جعلت دموعه تنهمر من عينيه؛ فلم يُرع النبي صلى الله عليه وسلم إلا ودموعه تسقط على وجهه الشريف؛ فقام النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال : مالك فقال : عقرب يا رسول كرهت أن أوقظك؛ فمسح النبي صلى الله عليه وسلم على عقبه حتى برئ؛ ولهذا لما تحدث أناس في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه –وربما فضله بعضهم على أبي بكر– قال : والله ما يساوي آل الخطاب ليلة من ليالي أبي بكر رضي اللهم عنهم أجمعين؛ فكانت له هذه المنقبة العظيمة {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠] ؛ فحصلت الهجرة التي ذكر.

قوله: وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ: هذا هو تعريف الهجرة، والهجر من الترك، والانتقال من مكة إلى المدينة هذه هي الهجرة الخاصة التي يعلق عليها الفضل العظيم، والتي عليها قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية)[1]؛ فهي منقبة عظيمة لأهلها، فمن هاجر من مكة إلى المدينة؛ فهو من المهاجرين، أما الهجرة بالمعنى العام فكما عرفها المصنف: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي بهذا التعريف باقية إلى يوم القيامة لا يمكن أن تنقطع ما دام ثَمَّ بلد شرك وبلد إسلام؛ فإن هذه الشريعة باقية لا تنقطع.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧–٩٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

---

(١) صحيح البخاري(٢٧٨٣)و صحيح مسلم (١٨٦٤).

هذا دليل على وجوب الهجرة، وعلى أن من ترك الهجرة مع القدرة عليها؛ فقد أتى كبيرة توردة النار، ويستحق بها النار إلا من استثنى الله تعالى، قال تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا } [النساء: ٩٨، ٩٩].

والله أعلم.

الهجرة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقدم معنا أن نبينا -صلى الله عليه وسلم- هاجر من مكة إلى المدينة لما أذن الله تعالى له بالهجرة، فوصل المدينة يوم اثنين، وكان أصحابه يخرجون كل يوم إلى ظاهر المدينة يترقبون مقدمه حتى إذا غلبتهم حرارة الشمس على الظل رجعوا أدراجهم؛ فخرجوا في ذلك اليوم حتى ارتفع النهار و لم يبق ظل يستظلون به؛ فهموا بالرجوع فطلع رجل من اليهود على أُطُم من آطام المدينة -يعني على حصن من الحصون- فنظر فإذا سواد مقبل فقال: "يا بني قيلة هذا جدكم – أي حظكم- الذي تنتظرون"؛ ففزع الناس إلى سيوفهم وأقبلوا يستقبلون النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه شهادة أنطق الله تعالى بها ذلك اليهودي فقد قال: "هذا جدكم -يعني حظكم وعزكم وشرفكم- الذي تنتظرون"؛ فأتى الناس فإذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر ومعهما عامر بن فهيرة والدليل عبد الله بن الأريقط، فلم يميزوا بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين أبي بكر حتى قام أبو بكر يظلل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الشمس؛ فعرفوا أن هذا رسول الله؛ لأن كثيرًا منهم لم يلقه بعد، ثم إن نبينا -صلى الله عليه وسلم- سار مع الناس حتى أتى قباء ونزل فيها ما شاء الله ،ثم بعد ذلك توجه إلى المدينة وصار بطون قبائل الأنصار كل يأخذ بناقته يريد أن يترل عنده ويرحبون به ويقولون: "هاهنا المنعة" ويرغبونه في الترول عندهم، وكان -صلى الله عليه وسلم-يقول: (دعوها فإنها مأمورة)، حتى أتت ناقته إلى موضع مسجده فبركت فلم يترل عنها -صلى الله عليه وسلم-، ثم قامت فمشت إلى موضع ثم رجعت إلى موضعها الأول فبركت وتحلحلت وألقت بجرانها في الأرض، فترل النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (هذا المترل إن شاء الله)، فقد أمرت هذه الناقة بتحديد موضع مسجده -صلى الله عليه وسلم-، فسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا الموضع؛ فقيل: إنه لغلامين من الأنصار، فساومهما عليه فقالوا: " بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا،

فطفق رسول الله صلى الله عليه و سلم ينقل معهم اللبن في بنيانه، وبقي إبان ذلك في بيت أبي أيوب الأنصاري في تفاصيل معلومة من السيرة(١).

والهجرة مفرق في طريق الإسلام ولهذا عظمها الصحابة رضوان الله عليهم، فلما أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن يجعل تأريخًا للمسلمين جمع الصحابة وشاورهم ثم استقر رأيهم على أن يؤرخوا بالهجرة؛ لأن هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- هي الإيذان بقيام الدولة المسلمة بجميع عناصرها وأركانها، فلم يكن التقويم مبنيًا لا على البعثة ولا على المولد النبوي وإنما كان مبنيًا على هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة؛ لعظم ذاك الحدث، وكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا فرح به المسلمون غاية الفرح؛ لمقدم النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال: وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ: أي هذه الهجرة صارت فريضة لكل مؤمن دخل في دين الإسلام وكان قادرًا على أن يهاجر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لما في ذلك من تقوية المؤمنين وتكثير سوادهم ونصرهم وموالتهم؛ فلأجل ذا كان من دخل في عقد الإسلام؛ لزمه أن يهاجر مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وينهى عن الرجوع إلى بلده أو باديته، وكان ينهى عن تَعَرُّضِ المهاجر: وهو أن يعود إلى باديته بعد إذ أسلم، فكانت هذه الفريضة ضرورة لقيام دولة الإسلام ولحصول النصر والعز والتمكين؛ فصار الناس يتقاطرون إلى مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وصار الأنصار رضوان الله عليهم يتلقون هؤلاء المهاجرين ويرحبون بهم ويقاسمونهم أموالهم وضياعهم كما جرى هذا في وقائع مشهورة، فكان بالمدينة: الأنصار وهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبل مسلمة الأوس والخزرج، والمهاجرون الذين تقاطروا من مكة ومن بقية قبائل العرب، ثم مازال أمر الإسلام يقوى ويشتد إلى أن بلغ ما بلغ ولله الحمد.

قوله: وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ: هذا تعريف الهجرة، وبلد الإسلام: هو الذي تكون فيه أعلام الإسلام وشرائعه في الأعم الأغلب ظاهرة، وأما بلد الشرك: فهو الذي لا تظهر فيه شعائر الإسلام في الأعم الأغلب، وشعائر الإسلام: هي الآذان، والعيدان، وإقامة السجود، وصلاة الجماعة، والجُمع، إلى غير لك من المظاهر الإسلامية، وهذا التعريف هو أوسع تعريف يمكن أن نطبقه في هذا العصر الحديث، وإلا ففيما مضى المراد ببلد الإسلام: هو البلد الجامع لأهل الإسلام الذي ينضوي الناس فيه تحت إمام واحد ويقاتلون فيه تحت راية واحدة، ومن سواهم فهم غير مسلمين ولا يخلون من أربعة أوصاف: إما حربيون، أو معاهدون، أو ذميون، أو مستأمِنون، فنظرة الإسلام للبشر أنهم إما مسلمون وإما غير مسلمين، وغير المسلمين هم هؤلاء الأصناف الأربعة، والمقصود بالذميين: هم اليهود والنصارى الذين رضوا بأن يبذلوا الجزية للمسلمين ويساكنوهم ويبقوا على دينهم قال الله تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }[التوبة: ٢٩] ، فإذا فتح الله تعالى البلاد على المسلمين وصار بعض أهلها من

(١) انظر : البداية والنهاية (١٨٦/٣)، مكتبة المعارف بيروت.

اليهود والنصارى مصرين على البقاء على دينهم مع بذل الجزية؛ فإنهم يسمون ذميين، وأهل الذمة في ذمة أهل الإسلام -بمعنى أنهم يحفظون حقوقهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم ولا يحل انتهاك شيء منها-، ولكنهم خاضعون للسلطة الإسلامية ويبذلون جزية سنوية، ولا وجود في هذه العصور الأخيرة لهذا التطبيق، فمنذ انتهاء الدولة العثمانية لم يبقَ هذا النظام -نظام أهل الذمة- بل ذهب واضمحل.

والمستأمنون: هم الذين يدخلون بلاد الإسلام بأمان، كما دل عليه قول الله عز وجل: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ }[التوبة: ٦] ، فإذا دخل أحد من غير المسلمين بلاد المسلمين وأُمِّن؛ فإنه لا يحل لأحد أن يتعرض له حتى يُرد إلى مأمنه، ولكنه يُدعى كما قال الله: { حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ}[التوبة: ٦]، ويرد إلى مأمنه ولا يُقصر على الدخول في الإسلام.

والمعاهد: هو من بينه وبين أهل الإسلام عهد وميثاق، وهذه الصيغة هي الصيغة الغالبة الآن في علاقات الدول الإسلامية مع غير الدول الإسلامية، فحينما يقع اعتراف بين دولتين أو أكثر؛ فهذا الاعتراف يعني نوع معاهدة بحيث أنه إذا انتقل أحد من أهل تلك البلاد إلى البلاد الإسلامية؛ فإنه يدخل بالعهد ويكون معاهدًا، ويسمونها الآن بالفيزا، فإذا حصل على الفيزا فمعنى ذلك أنه حصل على عهد؛ فلا يحل التعرض له ولا يجوز خفر ذمة أهل الإسلام بقتله أو إيذائه أو ظلمه؛ فإن هذا معاهدًا وقد جاء في الحديث: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ)(١).

والحربيون: هو أن يقع بين أهل الإسلام الذين تضمهم دولة واحدة وسلطان واحد حرب وقتال مع غير المسلمين، فلا ريب أن ما يقع بين المتحاربين: أن كل فريق يحاول أن ينال من الفريق الآخر؛ فلا عهد للحربي ولا ذمة له بل هو حلال الدم والمال.

إذن كان واجبًا على من دخل في عقد الإسلام في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-: أن يهاجر إليه في المدينة، ولا يحل له أن يرجع إلى باديته ولا أعرابيته، بل يبقى مؤتمرًا بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ: هناك هجرة خاصة وهي من مكة إلى المدينة، وهذا النوع من الهجرة انقطع بفتح مكة، فلما فتح الله مكة وصارت مكة دار إسلام انقطعت هذه المنقبة وهذه الفضيلة العظيمة؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية)، ومنزلة المهاجرين منزلة علِّية رفيعة، ألا ترون أن الله تعالى إذا ذكر المهاجرين والأنصار؛ قدَّم المهاجرين، قال الله تعالى في سورة الحشر: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ}[الحشر: ٨] ، ثم ثَنى فقال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ}[الحشر: ٩] يعني الأنصار، ثم ثلث فقال: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }[الحشر: ١٠] يقصد التابعين، وقال في موضع آخر:{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ }[التوبة: ١٠٠]، وكلا

(١) صحيح البخاري (٣١٦٦).

الفريقين على مترلة عظيمة لكن المهاجر على وجه العموم أفضل من الأنصاري، وطوبى للأنصار فقد جاء أنه ما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة –تأملوا–؛ وذلك لشدة رغبتهم رضوان الله عليهم – الأنصار– في إيواء إخوانهم وإيناسهم واستضافتهم، وهذه الهجرة لم تنقطع فهي فريضة باقية فحيث ما وجدت بلد شرك وبلد إسلام؛ صار لزامًا على من يعيش في بلد الشرك أن ينتقل إلى بلد الإسلام؛ لتحقيق المقاصد التي ذكرنا من تكثير سواد المسلمين وتقويتهم، والنأي بدينه عن الفتن.

قوله: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧–٩٩]: استدل المصنف –رحمه الله– على الهجرة بهذه الآية، قوله:{كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ}: يعني فتنا عن ديننا واستضعفنا، فتجيبهم الملائكة:{أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا}: أي أنه كان يسعكم أن تنتقلوا وتهاجروا، قوله: {فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيرًا}: عياذًا بالله وعيد عظيم، ثم استثنى الله تعالى غير القادر فقال: {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}: وهذا من سعة دين الله وسماحة الشريعة أن المكره لا شيء عليه، وقد كان أقوام في مكة يرسفون في الأغلال والقيود يحال بينهم وبين الهجرة، كما جرى ذلك لأبي جندل ولأبي بصير وغيرهم من الصحابة الذين كانوا قد حيل بينهم وبين الهجرة إلى المدينة؛ فهؤلاء معفو عنهم، وهذا أيضًا ينقلنا إلى النظر في حال من كان في بلدان أخرى هل يلزمه أن ينتقل إلى بلاد الإسلام أم لا؟ فنقول: إذا كان يمكنه أن ينتقل إلى بلد الإسلام؛ فإنه يجب عليه لزامًا أن ينتقل، أما إذا كان لا يمكنه؛ فهو معذور، ويمكن أن نتصور هذا في العقود الأخيرة بأن يوجد مسلم في بعض البلاد الغربية أو الشرقية، فإن تمكن من النقلة إلى بلاد الإسلام والعيش بين ظهراني المسلمين؛ كان ذلك لزامًا عليه؛ لأن عيشه بين الكفار يسلب دينه، وقد جاء في الحديث: (أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ)(١)، وهذا حديث جوَّد إسناده الشيخ عبد العزيز بن باز –رحمه الله–، فلو وجد مسلم يقيم بين كفار أو يهود أو نصارى فيقال له: هاجر إلى بلاد الإسلام، فإذا قال: الأنظمة تمنع ذلك والدول المسلمة لا يمكن أن تسمح لي بالإقامة؛ فهو معذور، وقد ارتفع عنه الحرج لهذا العذر؛ لقول الله تعالى: {فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا }[النساء: ٩٩] ، ويقابل ذلك أن ننظر هل يجوز للمسلم أن يدع بلاد الإسلام، ويقصد بلاد الكفر والإشراك يقيم فيها إقامة مؤقتة أو دائمة؟ فنقول: أما الإقامة المؤقتة فهي أهون، ولكنها لا تجوز إلا بشروط ثلاثة ذكرها شيخنا –رحمه الله–:

(١) سنن أبي داود (٢٦٤٧)، سنن الترمذي (١٦٠٤)، حسنه الألباني صحيح وضعيف الجامع الصغير.

الشرط الأول: أن يكون عنده علم يدفع به الشبهات؛ لأن القاصد إلى بلاد الكفار يطرأ على عقله من الشبهات، ويورد عليه من الأفكار المضلة ما قد يزلزل دينه وعقيدته، لا سيما إذا كنت بلادًا متطورة متقدمة من الناحية التكنولوجيه والمدنية؛ فقد يقع في قلبه زيغ –والعياذ بالله– فلا بد أن يكون عنده علم ثابت يدفع به الشبهات.

الشرط الثاني: أن يكون عنده ورع يدفع عنه الشهوات؛ لأن بلاد الكفار على مر الأعصار بلاد فجور وتحلل وتساهل بخلاف بلاد أهل الإسلام ففيها من رعاية الأخلاق والمحافظة على الآداب ما ليس في غيرها؛ فحينئذ إن كان عنده تقوى وورع يدفع به الشهوات؛ فقد تحقق الشرط الثاني.

الشرط الثالث: أن يكون لديه حاجة تحمله إلى هذه النقلة وهذه الرحلة، فإن كان هناك حاجة مع توفر الشرطين السابقين حل له أن يسافر، هذه الحاجة يمكن أن تكون طلب علم ويمكن أن تكون طلب تجارة، فإن الفقهاء نصوا على أن طلب التجارة مما يبيح السفر إلى بلاد الكفار، وأن ذلك من الضرب في الأرض المباح، أو أن يكون ذلك بغرض الدعوة إلى الله عز وجل؛ فهذا مقصد صحيح، أو أن يكون لطلب علاج لا يجد مثله في بلاده؛ فهذه حاجات صحيحة، والسياحة لا تعد من الحاجة؛ لأن السياحة في الواقع لا سيما بالمفهوم المعاصر: هي غشيان لأماكن ومواضع تكثر فيها المنكرات والفساد، فإن السياحة تعنى أن يذهب الإنسان إلى مواقع ومتنزهات يقصدها الناس على اختلاف أحوالهم ورداءة طباعهم وعاداتهم؛ فيقع البصر على مناظر مؤذية وعورات وغير ذلك، ولذلك لا يقال: إن السياحة من الحاجة التي تبيح أن يحمل الإنسان نفسه وحريمه ويذهب إلى هذه المناطق.

إذن لا بد من تحقق هذه الشروط الثلاثة لجواز السفر إلى بلاد الكفر، وذلك أن أعظم ما ينبغي للإنسان أن يحفظه: دينه؛ فإذا أمن على دينه وراعاه كان هذا هو أعظم المقاصد، والأمور نسبية فأنتم ترون أن النبي صلى الله عليه وسلم أذِن لأصحابه في مكة أن يهاجروا من مكة إلى الحبشة مع أن الحبشة في ذلك الوقت ليست دار إسلام؛ لكنهم كانوا في مكة يتعرضون للفتنة عن الدين وللأذى البدني والمعنوي حتى كان الحجر يوضع على صدر بلال وينوء به ويقول: أحد أحد، لا يكاد يتنفس لا يستطيع أن يأتي إلا بهذه الحروف الثلاثة: أحد أحد، وكان يؤتى بأسياخ الحديد فتوضع على ظهر خباب بن الأرت؛ فلا يطفؤها إلا ماء ظهره، وكان عمار بن ياسر يؤخذ رأسه فيغمس في الماء التعبير بالإغراق كما يقولون في لغة العصر، وكانوا يتعرضون لمحن عظيمة؛ فلأجل ذا أذن لهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بالهجرة إلى الحبشة قال: إن فيها ملكًا لا يظلم عنده أحد فهذا أخف الشرين، لكن لما بوأ الله تعالى للمؤمنين المدينة فلا يحكم بها إلا بدين الله والآمر الناهي فيها رسول الله–صلى الله عليه وسلم–؛ كان لزامًا على كل مؤمن أن يهاجر إلى المدينة، أما من قصد بلاد الكفر لأجل السكنى وغرض الإقامة فيها بغرض الرفاهية والتوسع في أمور الدنيا والتنعم؛ فهذا قد خاطر بدينه ونفسه وعياله وأقامهم في موضع يرى أنهم كل يوم يتناقصون وينسلخون من دينهم؛ فهذا لا يحل، لا يجوز للإنسان أن يهجر بلاد الإسلام ليقيم في بلاد الكفر اللهم إلا أن يكون له عذر كأن يخشى على نفسه أو نحو ذلك، أما أن يذهب بقصد الرفاهية والتنعم وأخذ الطيبات الدنيوية فهذا لا يحل له، وقد رأيت بعيني رأسي من المسلمين

الذين ابتلوا بالسكنى بين ظهراني الكفار في أوروبا وأمريكا من يبكي بكاءً مرًا وهو يرى ذريته أبناءه وبناته ينسلخون من الدين أمام عينه ولا يملك عليهم قوامة ولا ولاية؛ لأن الأنظمة المدنية لتلك الدول تمنعه من أن يتحكم فيهم أو يأمرهم أو ينهاهم، فما أن تبلغ الفتاة ثماني عشرة سنة؛ فإنه لا يستطيع أن يأمرها ولا أن ينهاها، لها أن تصاحب من تشاء ولها أن تسهر مع من تشاء ولها أن تتخذ صديقًا إلى غير ذلك من الموبقات، يرى ذلك بأم عينيه ولا يحرك ساكنًا، فلا شك أن تعريض الإنسان ذريته لهذه المخاطر لأجل لعاعة من الدنيا مجازفة عظيمة وتعريض للنفس لكبائر هو في غنى عنها، فبلاد الإسلام مهما بلغت من التخلف خير لأهلها؛ فإن الإنسان في بلاد الإسلام يقرع سمعه الآذان ويسمع القرآن ويجد أهل الإسلام، فالمقام بينهم ليس كالمقام بين ظهراني الكافرين.

قوله: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾: استدل المصنف أيضًا بهذه الآية على الهجرة.

قوله: قَالَ الْبُغَوِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–:نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ وَلَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ: والبغوي إمام مفسر مشهور، وتفسيره جرى –ولله الحمد– على التفسير بالمأثور، فهو من تفاسير أهل السنة، لعل الشيخ نقل كلام البغوي بمعناه لا بحروفه؛ فإن الذي في التفسير غير مطابق لهذا اللفظ، فكأن الشيخ –رحمه الله– نقله بمعناه، فالله تعالى ناداهم باسم الإيمان، قال: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ}، إذن هذا يُفهم بأن من شرط الإيمان أن يهاجر الإنسان من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وأن هذا مقتضى العبودية {فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}.

قوله: وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)[1]: هذا الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والدارمي ورجال أحمد ثقات، والحديث يدل على أن أمر الهجرة باق إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وعلق التوبة بطلوع الشمس من مغربها؛ لأنه بعد طلوع الشمس من مغربها يوصد باب التوبة؛ {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا } [الأنعام: ١٥٨] فإذا طلعت الشمس من مغربها فلا توبة، وإذا غرغرت الروح في الحلقوم فلا توبة، إذن عظم الشيخ وأعاد وأبدى في أمر الهجرة لعظيم شأنها وتأثيرها في قيام شأن الإسلام ودولته.

شرائع الإسلام

قال المؤلف –رحمه الله–: فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ – صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ – وَدِينُهُ بَاقٍ.

(١) مسند الإمام أحمد (١٦٩٠٦)، سنن أبي داود (٢٤٨١) صححه الألباني في الإرواء (١٢٠٨).

وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ. بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قوله: فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ ...إلخ: لما استقر نبينا صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وأوى إليه أصحابه؛ صارت شرائع الإسلام تترى وتتوالى؛ لأن البيئة صارت مناسبة لإقامة بقية أركان الدين؛ فشُرعت الزكاة، وشُرع الصوم، وقد تقدم معنا أن الصلاة قد شُرعت قبل الهجرة بثلاث سنين، وقد كانت مشروعية الزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة، ولكن الزكاة كأمر عام قد نزلت فيها آيات في مكة: كقول الله عز وجل: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [المؤمنون: ٤]، لكن تفاصيلها بأنصبائها وشروطها وغير ذلك إنما نزلت في المدينة؛ فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث السُعاة؛ ليقبضوا الزكوات من بهيمة الأنعام ومن الخارج من الأرض من الحبوب والثمار وفق معايير معينة جاء تفصيلها في المدينة، أما الزكاة كشريعة فقد جاء التنبيه عليها في المدينة، وأما الصوم فإنما فُرض في السنة الثانية من الهجرة، وصام النبي صلى الله عليه وسلم تسع رمضانات إجماعًا، وقد كان الجهاد متدرجًا، فلم يفرض لجهاد دفعة واحدة، وإنما كان في بداية الأمر قد أُذن لهم في دفع الصائل وقتال الذين يقاتلونهم، ثم بعد ذلك توسع الأمر حتى بلغ أن نزلت آية السيف؛ فكانت إيذانًا بالجهاد في سبيل الله وإدخال الناس في دين الله عز وجل حتى تكون كلمة الله هي العليا، ومعنى أن تكون كلمة الله هي العليا: لا أن يكون كل واحد من الناس بعينه يدخل في الإسلام لكن أن تكون الهيمنة والقوة ونفاذ الكلمة لسلطان المسلمين، وتكون الأمور العامة بيد المسلمين، فمن أبى وارتضى أن يدخل في عقد المسلمين؛ فإنه يبذل لهم الجزية، وكذلك الآذان فإن الآذان أيضًا فرض في أول الإسلام لعله في السنة الثانية أيضًا، فكان الآذان من أعظم شرائع الإسلام؛ لأنه يدل دلالة واضحة على هوية هذا المجتمع، فإذا جاء وقت الصلاة ثم لعلعت المساجد والمآذن بهذا الصوت الندي؛ عُلم أن هذا البلد بلد إسلام ولو تواطأ أهل بلدة على ترك الآذان لقاتلهم الإمام على ترك هذه الشعيرة، كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه من أعظم الشرائع ومن أعظم خصائص هذه الأمة قال ربنا عز وجل: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[آل عمران: ١٠٤]، وقال سبحانه: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ }[آل عمران: ١١٠]، الواقع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني إشاعة الحق وإبطال الباطل، وهذه رسالة هذه الأمة: أن تشيع القيم والمعاني الصحيحة الصائبة، وتفشي العلم النافع والعمل الصالح، وتقاوم البدع والخرافات والمعاصي والمنكرات وهذا إنكار المنكر، إذن هذان الخطان خطان متوازيان الأمر بالمعروف من جهة البناء والتشييد، والنهي عن المنكر من جهة الصيانة والحفظ، فهما من أخص خصائص الأمة المحمدية.

قوله: وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ: لم تزل الشرائع تنزل تترى حتى كمل الدين.

قوله: أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ: يالها من عشر! عشر سنوات مملوءة بالعلم والجهاد والتعليم، أنت لو تأملت مثلًا في آخر عشر سنوات مرت بك ما وجدت شيئًا ذا بال يستحق أن يُذكر، أما العشر سنوات التي أمضاها النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة، كم تضمنت من غزوة وسرية وخطبة وتعليم وأحداث عظام ببركة عمره -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: وَتُوُفِّيَ - صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ -: كما أخبر الله تعالى {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } [الزمر: ٣٠] ، فتوفي النبي -صلى الله عليه وسلم- في يوم اثنين في السنة الحادية عشرة من الهجرة في ربيع الأول، وكان قد بدأ مرضه في أواخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول، وقد شعر النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا؛ فإنه لما حج حجة الوداع في السنة العاشرة، كان يقول لجموع الناس: (لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا)[1]، فكان في هذا إشعار بأنه أدى المهمة، وأنزل الله تعالى عليه ما سيأتي بعد قليل {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] ، فكان في هذه الآية إشارة إلى أن المهمة تمت، وأن الوظيفة التي لأجلها بعثه الله تعالى قد حصلت، بل وأنزل الله عليه {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) } [سورة النصر] وكان من فقه ابن عباس وحدثه رضي الله عنهما لما سأله عمر أنه قال: (أجل رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلمه إياه)[2]، فكانت هذه إرهاصات ومقدمات تُنبئ عن دنو أجله، وفعلًا قال في آخر عمره: (ما زلت أجد أثر الأكلة التي أكلتها يوم خيبر، وهذا أوان انقطاع أبهُري)، وذلك أن نبينا -صلى الله عليه وسلم- في يوم خيبر دست له يهودية السم الزعاف في شاة مسمومة، وسألت ماذا يعجب النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ فقالوا: الذراع، فجعلت له هذا السم في الذراع، فلما أكل النبي -صلى الله عليه وسلم-ونهس منها نهسة؛ أمر أصحابه أن يتوقفوا، وقال: (إن هذه الذراع أخبرتني بأن فيها سمًا)، وكان قد أكل منها بِشر بن البراء فمات لساعته رضي الله عنه، ولكن الله حفظ نبيه -صلى الله عليه وسلم-[3]، حتى إن عائشة -رضي الله عنها- تقول: (مازلت أرى أثر السم في لهوات النبي -صلى الله عليه وسلم-)، يعني أبقاه الله وجمده يُرى سواده وأثره من الداخل، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في آخر عمره: (وهذا أوان انقطاع أبهُري)، فلو قال قائل: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد قتلته يهود لما كان بعيدًا من صواب.

---

(١) سنن الترمذي (٨٨٦)، سنن النسائي (٣٠٦٢)، سنن ابن ماجه (٣٠٢٣)، صححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٤٢٨).

(٣) انظر البداية والنهاية (١١٠/٤)، الطبقات الكبرى لابن سعد(٢٠٣/٢).

المهم أن الله تعالى توفاه في يوم اثنين، ودهش الناس دهشة عظيمة، لا سيما أنه في ذلك اليوم قد كان معه نوع نشاط، وأزاح الستر ورأى المسلمين وهم يصلون؛ فسُر واستنار وفرح المسلمون وظنوا أنه شفي، حتى إن أبا بكر الصديق ذهب يتفقد بعض ضياعه خارج المدينة، فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسنح قال إسماعيل يعني (تعني) بالعالية فقام عمر يقول والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وقال عمر والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن (فليقطعن) أيدي رجال وأرجلهم -وكان عمر رضي الله عنه مصدومًا بهذا الأمر، فكان يخشى أن ينتقض أمر الإسلام- فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبله قال بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا، ثم خرج، فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر) وقال: (أيها الناس من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإن الله حي لا يموت)، ثم تلا قول الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } [آل عمران: ١٤٤][1]، فما أن سمعها عمر رضي الله عنه حتى عُقِر لم تكد تحمله قدماه وخر إلى الأرض، وهذا يدل على ثبات أبي بكر ورباطة جأشه وقوة علمه وفقهه في الملمات والأزمات، فتوفي رسول -صلى الله عليه وسلم-، وتلقى الناس هذا الأمر، ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم لتكريمهم له غسلوه في أثوابه و لم يكشفوه ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ثم صار الناس يدخلون إليه أرسالًا يُصلُّون عليه فرادى، دخل الرجال والنساء والولدان ثم دفن -صلى الله عليه وسلم- ليلة الأربعاء، وقد أدى ما عليه، نسأل الله أن يجمعنا به في جنات النعيم، وهو الذي قام بين الناس في حجة الوداع قال: (وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك وأديت ما عليك)[2]، ونحن والله نشهد أنه قد بلغ رسالات ربه وأدى ما عليه، فرفع أصبعه إلى السماء وينكت به إلى الناس وقال: (اللهم اشهد).

قوله: وَتُوُفِّيَ – صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ – وَدِينُهُ بَاقٍ: أبقى الله هذا الدين العظيم.

قوله: وَهَذَا دِينُهُ: يعني المشار إليه ما تقدم ذكره، وما سيأتي أيضًا.

قوله: لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ: أي خير.

قوله: وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ: إي والله.

قوله: وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ: هذه في الحقيقة عبارة محكمة؛ لأن أصل الدين إفراد الله تعالى بالعبادة.

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٦٧-٣٦٦٨).

(٢) صحيح مسلم (١٢١٨).

قوله: وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ: لأنه أصل الشرور كيف لا؟! {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } [النساء: ٤٨]، {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١]، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي ذنب أعظم عند الله قال :(أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)(١)، فأعظم الشر هو الشرك.

قوله: وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: أي من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

قوله: وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُه اللهُ وَيَأْبَاهُ: ما ترك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– شاذة ولا فاذة إلا ونبه الأمة عليها، حتى قال أبو ذر رضي الله عنه: (لقد تركنا محمد صلى الله عليه وسلم، وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا)(٢) الله أكبر، كل شيء تحتاجه الأمة أخبر عنه النبي –صلى الله عليه وسلم–، عن عبد الرحمن بن يزيد عن سلمان قال: قيل له: (لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة). قال: (أجل لقد نهانا –صلى الله عليه وسلم– أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن لا نستنجي باليمين، وأن لا يستنجي أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار، أو يستنجى برجيع، أو عظم)(٣).

كانت في الحقيقة جوابًا مسكتًا صحيح علمنا نبينا –صلى الله عليه وسلم– كل شيء حتى آداب قضاء الحاجة، تأمل في حياتك اليومية ستجد أنه ما من مرفق من مرافق الحياة الاجتماعية الاقتصادية الأدبية الأخلاقية كل شيء إلا وقد بيّن الله سبحانه وتعالى ونبيه –صلى الله عليه وسلم– لنا منه علمًا نسير عليه {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ } [البقرة: ١٣٨].

قوله: بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً: هذه مهمة وهو أن نعلم أن رسالة محمد –صلى الله عليه وسلم– إلى الناس كافة إنسهم وجنهم، ليست كما يزعم بعض النصارى أنها إلى العرب فقط قياسًا على بعض الأنبياء السابقين، لا، بل رسالته –صلى الله عليه وسلم– إلى الثقلين: الإنس والجن.

واستدل المصنف –رحمه الله– بقول الله تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨] إذن أمرنا الله تعالى بالإيمان به، وأمرنا سبحانه بالاتباع، لا يكفي مجرد الإيمان به كما يظن بعض الناس أن الثناء على محمد –صلى الله عليه وسلم– يعني الإيمان به، بل لا بد من الاتباع، ومعنى الإيمان بمحمد –صلى الله عليه وسلم –: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع هذا –، إذن افترض الله طاعته على جميع الثقلين: أما الإنس فالأمر ظاهر فقد كان النبي –صلى الله عليه

(١) صحيح البخاري (٤٤٧٧)، صحيح مسلم (٨٦).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢١٣٦١)، والبزار في مسنده (٣٨٩٧)، وحسنه الأرنؤوط.

(٣) سنن أبي داود (٧) وصححه الألباني.

وسلم- يوجه دعوته إلى الإنس، لكن حتى الجن أيضًا داخلون في الخطاب، ولما رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الطائف كسيرًا حزينًا قد رده أهل ثقيف أسوأ رد، أوى إلى وادي نخلة موضع وقام يصلي، فجمع الله له نفرًا من الجن {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأحقاف: ٢٩ - ٣١] إذن بلغت رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هذا العالم الغيبي غير المنظور -إلى الجن-؛ فهم مخاطبون، ووقع في موقف آخر أن التقى بوفد من جن نصيبين، أتوا إليه كما يفد إليه قبائل العرب تفد إليه وفود الجن، ووقع بعض ذلك أيضًا في العهد المكي فقد حدَّث عبد الله بن مسعود: (أنهم كانوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فمضى، قال: فغاب عنا - صلى الله عليه وسلم-: فقلنا: استطير أو اغتيل قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء قال فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم وقال: أَتَانِى دَاعِى الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ) قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ (لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِى أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- (فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ)[1].

، فهذا طرف مما يدل على تعلق دعوته -صلى الله عليه وسلم- بالجن أيضًا كما الإنس، وأنزل الله تعالى سورة كاملة -سورة الجن- تبين قبولهم لدين الله تعالى، ودخول بعضهم في دين الإسلام {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} [الجن: ١٤، ١٥].

قوله:]. وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينً﴾[المائدة: ٣]: قال يهودي لعمر -رضي الله عنه- له يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال أي آية قال {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣]، قال عمر: (قال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم جمعة)[2]، وهذه الآية تقطع الطريق على كل مبتدع؛ لأن الله قال:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}: إذن لا سبيل لأحد أن يضيف من عنده إلى دين الله؛ فإن الله تعالى قد أكمل الدين، فمن زعم أنه ينبغي كذا ويستحسن كذا ويستحب كذا بلا دليل ولا بينة؛ فكأنما يطعن في كمال الدين، كأنما يقول: توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبقي عليه بقية لم يكملها، ولو لم يقل هذا بلسان مقاله لكان قائلًا له بلسان حاله، لكن الله تعالى قال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

(١) صحيح مسلم (٤٥٠).

(٢) صحيح البخاري (٤٥)، صحيح مسلم (٣١٠٧).

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]؛ فتمت النعمة ورضي الله لنا الإسلام دينًا، ونحن نرضى بما رضي الله لنا، رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- رسولًا نبيًا.

والله أعلم.

البعث

📖**قال المؤلف -رحمه الله-: وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[الزمر: ٣٠، ٣١].**

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه: ٥٥]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[نوح: ١٧، ١٨]. وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧].

لما قرر الشيخ -رحمه الله تعالى- هذه الأصول الثلاثة وآخرها: معرفة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وذكر طرفًا يسيرًا مهمًا من سيرته، أخبر بأنه قد مات؛ وذلك لرفع شبهة من يدعِي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يزال حيًا أو أن روحه تتجول، أو غير ذلك من الدعاوى الباطلة، بل نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- قد مات بنص الكتاب وشهادة الواقع ولا ريب، شأنه شأن بني آدم.

والدليل على موته قول الله تعالى: **﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[الزمر: ٣٠، ٣١]**؛ فالموت أمر كتبه الله تعالى على كل نفس.

قال الله - عز وجل-: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} [آل عمران: ١٨٥]؛ فلا شك أن الموت أدرك نبينا-صلى الله عليه وسلم- ولحق بالرفيق الأعلى، وشهد الناس بهذه الوفاة المحققة، بل إن الله تعالى قد قال في كتابه: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران: ١٤٤]. فقد مات نبينا -صلى الله عليه وسلم- ولا ريب كما يموت سائر بني آدم.

وليس لبشر الخلد، لا النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا الخَضر كما يدعي الصوفية في مخاريقهم، بل قد مات كل من أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يموت، فإنه خرج على أصحابه ذات ليلة وقال: (مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ الْيَوْمَ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ وَهْيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ)[1] وعند الترمذي قال صلى الله عليه وسلم (أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ عَلَى

(١) صحيح مسلم (٢٥٣٩).

رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لاَ يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ)[1]. أي أن ذلك الجيل وذلك القرن يفنى كله لا يبقى منهم أحد. فلو فرض جدلًا بأنه كان أحد بعد على قيد الحياة فقد أدركه الموت ولا ريب.

قال الله تعالى في هذه الآيات: ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** ﴾**[الزمر: ٣]**: هذا الاختصام الذي يجري بين يدي الله –عز وجل– بين الأنبياء وأقوامهم هو الذي أخبر الله تعالى عنه قبل ذلك بقوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: ١٤٣].

وذلك قد بينه النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنه يأتي النبي يوم القيامة فيشهد على قومه فيردون شهادته، فيقول الله تعالى له: أمعك أحد؟ فيقول: نعم، محمد وأمته. فيستشهدون فيشهدون أن أنبياء الله أو أن ذلك النبي قد بلغ رسالات ربه، فهذا الاختصام حينما تحاول الأمم أو الأفراد التنصل من هذا المصير الذي ينتظرها، فيقع الاختصام بين الأقوام وبين أنبيائهم؛ فيحسمه الله تعالى بإقامة الحجة عليهم.

قال: وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ: كأن الشيخ –رحمه الله– لما فرغ من ذكر الأصول الثلاثة التي يُسأل عنها الميت في قبره رأى التأكيد على مسألة الإيمان باليوم الآخر، وإن كان قد سبق ذكرها فيما مضى ضمن مسائل الإيمان.

فقال: وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ: يعني بعد موتهم، **يُبْعَثُونَ:** أي بمعنى ينشرون من قبورهم أحياءً. وقد نطق بهذا ناطق الكتاب: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ** ﴾ **[التغابن: ٧]**. هكذا أمر الله نبيه أن يُقسم بذات الله الشريفة: ﴿ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي** ﴾ **[التغابن: ٧]**. وهذا أحد ثلاثة مواضع يؤمر فيها بهذه الصيغة: ﴿ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ** ﴾ **[التغابن: ٧]**.

وجاءت بهذه المؤكدات العظيمة، فالبعث حق، وفي الصحيح من حديث عائشة –رضي الله عنها– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا)[2]، حفاةً: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غرلًا: غير مختونين، بُهمًا: أي ليس معهم شيء. أي أن الإنسان يرد بخلقه الكامل حتى القلفة التي تكون على رأس الذكر وتختن في وقت الصغر تعود مع صحابها. {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤]. تبارك الله.

قال: وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** ﴾ **[طه: ٥٥]**: مرجع الضمير في الجمل الثلاث إلى الأرض، أُمِّنا التي منها خلقنا، وذلك أن الله تعالى خلق أبانا آدم من قبضة من تراب الأرض –من سهله ووعره وأحمره وأسوده– ولأجل ذا جاءت أخلاق بنيه على أنحاء متفرقة، فمنهم السهل ومنهم الصعب، وألوانهم متفاوتة؛ لحكمة بالغة، فقبض الله قبضةً من تراب الأرض، وجعل فيها الماء فكانت طينًا، ثم بعد ذلك يبست؛ فصارت بعد أن شكلها الرب –سبحانه وتعالى– صلصالًا كالفخار، ثم نفخ فيها من روحه فاستحال خلقًا جديدًا.

---

(١) سنن الترمذي (٢٢٥١)، صححه الألباني.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٥٩).

قال: ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ** ﴾ **[طه: ٥٥]**: وذلك أن ابن آدم إذا مات دُسَّ في الأرض ووري الثرى، كما دل الله تعالى ابن آدم الأول الذي قتل أخاه على هذه السنة الكونية. {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ} [المائدة: ٣١]. فمنذ ذلك الحين علم الناس سنة الدفن، فيعود الإنسان ترابًا، تتحلل أجزاؤه، ويفنى ولا يبقى منه إلا عجب الذنب وهو العصعص، فيفنى ابن آدم ولا يبقى منه إلا هذا الشيء اليسير الذي منه يُرَّكب الخلق يوم القيامة، وكأن هذا الموضع يحتفظ بالصفات الوراثية لكل آدمي؛ فمنه يتركب خلقًا جديدًا حين يأذن الله تعالى بالبعث والنشور.

قال: ﴿ **وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾: أي من الأرض، لكن تلكم الأرض أرض مبدلةً، هي ذات الأرض في مادتها لكنها على نحو جديد، فالأرض التي يبعث عليها الناس يوم القيامة تمد مد الأديم، مسطحة كالقرصة، ليس فيها معلم لأحد، لا جبل يُعلى عليه ولا واد يكنِّه؛ قال صلى الله عليه وسلم (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ)(١)، وكما قال ربك –سبحانه وتعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا } [طه: ١٠٥ – ١١١].

لن تجد تصويرًا لذلك المشهد العجيب الرهيب أبلغ من هذا التصوير، أرض جديدة تنشق عن المودَعين فيها من لدن آدم عليه السلام، ممن كانت أطوالهم ستون ذراعًا في السماء إلى من هم في مثل أطوالنا إلى ما يكون من الخلق بعد ذلك، ومعهم الوحوش والعشار والدواب والطير والبهائم ومن شاء الله تعالى في مشهد مهيب ومسيرة عجيبة، يتجهون إلى الأرض التي سيحاكمون عليها ويقضى بينهم.

قال: وقوله – أي مما يدل إثبات البعث–: ﴿ **وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾**[نوح: ١٧، ١٨]**: هذا أيضًا موافق للآية الأولى ومطابق لها، فهذه الأرض منها أنبتنا الله، فإن جزئيات أبداننا ومكوناتنا مرجعها إلى عناصر الأرض المعروفة؛ فمنها نبتنا ونشأنا، إما عن طريق الغذاء الذي نتناوله أو عما يرضعه الطفل من والدته؛ فمرده إلى هذه الأرض التي أنبتنا الله تعالى منها، ثم تجري الإعادة.

قال: ﴿ **ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** ﴾**[نوح: ١٨]**: فالإعادة تكون بالموت والدفن، ثم الإخراج يكون يوم القيامة بعد النفخ في الصور.

إذن الله تعالى قد وقَّت وقتًا معلومًا لعمر هذه الدنيا وأخفاه عن العباد؛ فلا أحد يعلم متى الساعة، وقد أخبر الله تعالى بأنه لا يجليها لوقتها إلا هو: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}

(١) صحيح البخاري (٦٥٢١).

[النمل: ٦٥]. فكل من ادعى العلم بالساعة ونهاية العالم؛ فاعلموا أن دعواه باطلة، فإنه يخرج علينا بين الفينة والفينة دعوات تزعم أن القيامة وخراب العالم ونهاية الدنيا في تاريخ كذا وكذا، كلها دعاوى باطلة مردودة بنص القرآن، يجب تكذيبها وردها على قائلها.

قال: وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ: إي والله، ما خلق الله تعالى هذه الخليقة عبثًا بل خلقها الله تعالى لحكمة، هذه الحكمة هي التي نص عليها قوله:{مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]. وقال منكرًا على من زعم عدم الحكمة أو غاب عنه ذلك أو لم يؤمن به : {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون: ١١٥]. لا يمكن أن يقيم الله –عز وجل- هذا البناء العالي وهذا الأرض الممهدة، وينشر فيها هذه الخلائق، ويبث فيها رجالًا ونساءً لا لحكمة، الله يتره عن هذا العبث بل ذلك لحكمة بالغة ولأجل ذا قال: **وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ.**

لا بد من حساب، فحين يبعث الناس ويسيرون إلى أرض المحشر يطول بهم المقام، ينتظرون الفصل في يوم طويل جدًا جدًا، يلحقهم فيه من العنت والعناء الشيء العظيم إلا من خفف الله تعالى عنه ذلك، قال ربنا:{عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [المدثر: ١٠]. {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ} [القمر: ٦]. {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر:٦،٧،٨]. عياذًا بالله.

ففي ذلك الموقف يعرق الناس بعد أن تُدنى الشمس منهم قدر ميل، قال صلى الله عليه وسلم (تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ) قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ فَوَ اللَّهِ مَا أَدْرِى مَا يَعْنِى بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِى تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ. قَالَ (فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِى الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا)[1]. قَالَ وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم- بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ ، وهذا من الغيب الذي يجب أن نؤمن به، ولا يجوز أن تعارض مثل هذه الأخبار الغيبية بالنظرات الفيزيائية، بأن يقول قائل: كيف يستقيم هذا والأرض مستوية منبسطة، وقانون الأواني المستطرقة عند أهل الفيزياء يمنع مثل هذا؟!، لا يجوز أن تقابل به النصوص، الذي أوجد هذه القوانين الطبيعية قادر على إبطالها، وخبر الله حق، وخبر نبيه –صلى الله عليه وسلم- حق، وهذه قاعدة يجب على الإنسان أن يُعملها فيما بلغه وصح من كلام رب العالمين وكلام سيد المرسلين، ألا يقابله بمحض العقول بل يقابله بالقبول والتسليم، وأنه حق على حقيقته.

ثم بعد ذلك تنجفل الخلائق إلى أبينا آدم عليه السلام،قال صلى الله عليه وسلم (يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ (يُجْمَعُ النَّاسُ) الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٤).

وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ (وَلَا يَغْضَبُ) بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ)[1] وفي رواية ثم تلا: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا } [الإسراء: ٧٩] قَالَ: (وَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[2].

(١) صحيح البخاري (٤٧١٢).

(٢) البخاري (٧٤٤٠).

فلهذا كانت هذه الأمة السعيدة هي أول الأمم يقضى بينها يوم القيامة، كما قال في الحديث: (نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ)[1] .

فيقع القضاء بين العباد، ويقع في ذلك اليوم أمور عظيمة مهولة، يحار العقل في التفكر بها: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

فتنشق كل سماء كما في بعض الآثار، ويترل ملائكتها فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، فتنشق السماء التي بعدها فيحيطون بمن قبلهم حتى يكونون سبع حِلق حول أهل الأرض.{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } [الرحمن: ٣٣].

يكون ذلك كالإرهاص والمقدمة لتترل الرب –سبحانه وتعالى- ومجيئه لفصل القضاء بين العباد، فيترل ربنا نزولًا حقيقيًا، ويجيء مجيئًا حقيقيًا، ويأتي إتيانًا حقيقيًا على الوجه اللائق به –سبحانه- لا ندرك كيفية ذلك ولا نتخيله، لكن نثبت معناه حقًا وصدقًا، ونعلم ونصدق بخبر الله تعالى؛ فيجيء الرب للقضاء بين العباد يوم القيامة.

قال الشيخ –رحمه الله-: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]: إذن نتيجة الحساب الجزاء، **والحساب قد ذكرنا لكم فيما مضى أنه على نوعين: حساب المؤمنين، وحساب الكافرين:**

- **فأما حساب الكافرين:** فإنه ليس حسابًا بمعنى الموازنة بين الحسنات والسيئات؛ لأنه لا حسنات لهم:{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣].فليس في الكفة الأخرى شيء يوضع أصلًا؛ لأن الشرك لا تبقى معه حسنة، وإنما يقررون بذنوبهم، فيعترفون بها؛ إظهارًا للحق، ثم يؤمر بهم فيلقون في جهنم –عياذًا بالله-.
- **وأما المؤمنون فإن حسابهم على ضربين: عرض ومناقشة:**

فالعرض: يكون لمن سبقت له من الله الحسنى، ممن أراد الله تعالى به خيرًا، فإنه يدنيه يوم القيامة ويضع عليه كنفه، ويقرره بذنوبه، أتذكر ذنب كذا يوم كذا؟ والعبد يقول: أي رب، أي رب. حتى يظن أنه قد هلك، فيقول الرب له: (إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم).

ما أسعده! ما أهنأه! حينما يقرع سمعه –أسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم- ممن يقال له: (إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم). تلكم هي السعادة الحقيقية. فحينئذ يسعد سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا.

---

(١) صحيح مسلم (٨٥٥).

وأما المناقشة فإنها تكون في حق من أراد الله تعالى أن يعذبهم من عصاة الموحدين بقدر ذنوبهم، فإنه يدقق معهم في الحساب؛ لأنه يراد بهم أن يعذبوا، فحينئذ يعذبون بقدر ذنوبهم، ثم يكون مآلهم إلى الجنة، على تفاوت فيما بينهم.

ولهذا أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– عن قوم يخرجون من النار، يقال لهم: الجهنميون. يُخرجون من النار ضبائر ضبائر قد امتحشوا، احترقوا وتفحموا، فيلقون في نهر في الجنة يقال له: نهر الحياة؛ فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، يقلب الله جلودهم بعد أن كانت جلودًا محترقةً مشويةً بالنار، وإذا بها تعود خلقًا جديدًا، فيدخلون الجنة.

إذن بعد المحاسبة المجازاة، والمجازاة إما في الجنة وإما في النار: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى: ٧]. لتتم الحكمة البالغة من هذه الخليقة، فالله تعالى ما خلق الدنيا عبثًا، وإنما خلقها لحكمة بالغة؛ ليعلم من يعبده ومن يعصيه، من يكون أهلًا لدار كرامته، ومن يكون أهلًا لدار عذابه ونقمته.

البعث

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال –رحمه الله– معقبًا على هذه القضية العظيمة: وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧]: إذن الله تعالى أثبت البعث في هذه الآية إثباتًا لا مزيد عليه، حيث أمر نبيه أن يقسم بذات الرب –سبحانه– ﴿ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ** ﴾ **[التغابن: ٧]**. واللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة. إذن البعث حق، ومن كفر بالبعث؛ فقد كفر بالله العظيم، فمن أنكر البعث؛ فهو كافر.

ومنكروا البعث أصناف وطوائف:

- **الدهرية**، والدهرية ملاحدة يقولون: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} [الجاثية: ٢٤]. قال قائلهم: أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، هذه مقالة الدهرية.
- **وقريب من هذه المقالة مقالة القائلين بتناسخ الأرواح**، وهم أمم ممن يسكن شرق الكرة الأرضية من الهندوس والبوذيين ومن على شاكلتهم، يعتقدون عقيدةً باطلةً يقال لها تناسخ الأرواح، يزعمون أن الإنسان إذا مات ارتفعت روحه ثم انتسخت في جسد آخر، فإن كان في الدورة الأولى قد سلك سلوكًا حسنًا وعمل عملًا حسنًا؛ فإن روحه تنتسخ في بدن أرقى من البدن الذي كان فيه، وإن كان عمله في الدورة الأولى سيئًا ومشينًا؛ فإنه يعاقب بأن تنتسخ روحه في بدن حق؛ فتنتسخ في جسد صرصار أو حشرة أو غير ذلك، هكذا يعتقدون، وتظل الدنيا تدور على هذا، لا نهاية لها.

- **الفلاسفة**، فإن الفلاسفة ينكرون البعث الجسماني، ولا يعتقدون بوجود البعث.
- **الباطنية**: الذين يزعمون ليس ثَمَّ بعث ولا نشور، وأن الأنبياء لم يُرسلوا من عند الله، وإنما هم قوم أذكياء، خاطبوا الناس لكي يحملوهم على الاستقامة والسلوك الحسن، فقالوا: إن لكم ربًا جبارًا قاهرًا فعالًا ...إلخ، وأنه قد جعل يومًا آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، وليس هناك شيء من ذلك البتة، إنما هي دعوى – قاتلهم الله– هؤلاء ملاحدة.
- **القرامطة الرافضة**، فإنهم يعتقدون هذه العقيدة الكفرية، فهؤلاء أيضًا من منكري البعث.

ولأجل ذا كان الإيمان بالبعث من أصول الإيمان، في جميع الشرائع لا يمكن أن توجد شريعة من عند الله إلا والإيمان بالبعث، والإيمان باليوم الآخر من آصل أركانها: قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا} [البقرة: ٦٢]. أرأيتم هذه الثلاث، هذه الثلاث هي أصول الدين في جميع الشرائع: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح.

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر. **من شواهد ذلك قول الله تعالى**:

- {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [البقرة: ١٧٧].
- {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١].

فالإيمان باليوم الآخر من أصول الإيمان العظيمة التي تنضبط بها الأحوال والأعمال والسلوك والأخلاق وسائر الأمور، ولا يمكن أن يتصور إيمان بدون الإيمان باليوم الآخر؛ ولأجل ذاك كان من كذب بالبعث كافرًا.

❖ **وقد تنوعت دِلالة الكتاب والسنة على إثبات البعث بأنواع الأدلة، منها**:

- **هذا الدليل النقلي وما شابهه**، يعني الأدلة من نصوص الكتاب والسنة التي تبلغ مبلغ التواتر، فكتاب الله لا سيما القرآن المكي مليء بالآيات الدالة على إثبات البعث؛ ويكفي أن تقرؤوا جزء (عم)؛ لتروا كيف أعاد الله تعالى وأبدى في إثبات اليوم الآخر: {فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [النازعات: ٣٤]، {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} [عبس: ٣٣]، {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } [التكوير: ١]، {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار: ١]، {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١]، القرآن المكي مليء بالأدلة الدالة على إثبات البعث، وكذا السنة النبوية.
- **العقل**، فإن العقل أيضًا يدل على إثبات وإمكانية البعث؛ كما قال –عز وجل-: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٠٤]، وقال في الآية الأخرى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]. فالذي ابتدأ الخلق قادر على أعادته، فمما تعجبون أيها المنكرون؟!، يا سبحان الله! كيف تعجبون من هذا؟!

ولما جاء أبي بن خلف وهو من زعماء المشركين إلى نبينا –صلى الله عليه وسلم- بعظم رميم وفتَّه أمامه وقال: يا محمد، أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد أن كان رميمًا؟ قال: نعم، ويبعثك ويدخلك النار، قال الله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } [يس: ٧٨، ٧٩][1].

إذن هذا دليل عقلي واضح وصريح على إمكان البعث، فالذي بدأ أول خلق قادر على إعادته بل هو أهون عليه.

- **الدليل الحسي**: والمقصود به: الأدلة المشاهدة المدركة بالحواس: بالسمع بالبصر بالشم بالذوق باللمس، فقد قامت أدلة حسية على إثبات البعث، **يكفي أن الله تعالى ذكر في سورة البقرة نحو خمس أدلة حسية على إثبات البعث**:

المثال الأول: أن الله –سبحانه وتعالى- حكى عن رجل: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ } [البقرة: ٢٥٩]، الطعام والشراب الذي هو عرضة للخراب والفساد والتعفن بسرعة، أبقاه الله تعالى على حاله، {وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ} [البقرة: ٢٥٩]. الحمار الذي هو أقوى بنية، جعله الله تعالى عظامًا بيضاء تلوح، قال: {وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا} [البقرة: ٢٥٩]: فإذا بالرجل يبصر هذا الحمار الذي كان رضام من عظام، إذا بهذه العظام يتراكب بعضها على بعض، وإذا باللحم يكسوها، وإذا بها تنتهي إلى حمار ينهق، عجبًا. قال: { قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٥٩].

المثال الثاني: ما ذكره الله تعالى في قصة إبراهيم: {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]، وفي هذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن منه ما هو أزيد من بعض حتى في التصديق، قال: { قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا } [البقرة: ٢٦٠]. يعني قطع هذا الطير، واجعل على هذا الجبل جزءًا، وعلى هذا الجبل جزءًا، وذاك جزء، وذاك جزء، وهكذا في كل واحد من هذه الطيور، قال: {ثُمَّ ادْعُهُنَّ} [البقرة: ٢٦٠]. فدعاهن، فالتأمت أجزاؤهن، وأتين يخفقن يطرن نحو إبراهيم، {وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٦٠].

المثال الثالث: قصة البقرة، وهو أن رجلًا من بني إسرائيل قُتل، واختلف في قاتله، فاحتكم بنو إسرائيل إلى موسى بن عمران، فأمرهم أن يذبحوا بقرةً ثم اختلفوا في شأن البقرة إلى أن وقعوا على البقرة بالمواصفات التي ذكرها

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/٥٥٤) ط الرسالة.

لهم موسى –عليه السلام–: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا} [البقرة: ٧٣]. فضربوه بجزء من هذه البقرة فقام ذلك الميت من موتته، وقال له موسى: من قتلك؟ قال: ابن أخي. وكان ابن أخيه قد قتله ليأخذ ميراثه.

المثال الرابع: القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} [البقرة: ٢٤٣]، فروا من بلدهم خوفًا من شيء معين، يخشون الموت، فالله –سبحانه وتعالى– قد أماتهم ثم أحياهم مرةً أخرى.

المثال الخامس: بنو إسرائيل حينما قالوا: أرنا الله جهرًا. فأخذتهم الصاعقة وماتوا، قال الله: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ٥٦].

إذن هذه أدلة حسية كثيرة، **وبالإضافة إلى هذه الأدلة**:

ما جرى لأصحاب الكهف الذين ناموا ثلاثمائة وتسع سنين، ثلاثمائة وبضع سنين ثم بعثهم الله –عز وجل–، وما أجراه الله تعالى على يدي عيسى –عليه السلام– إذ كان يحيي الموتى بإذن الله.

إذن هذه كلها أدلة حسية تدل على إمكان البعث.

- **النظر الصحيح**: إذ أن كل عاقل يأبى أن يقبل أن يُنشئ الله الخليقة، ويرزق الله الناس ويطعمهم ويسقيهم ويأمرهم وينهاهم ثم ينتهي الأمر بلا بعث.

ألم يكن الله –عز وجل– قد أخبرنا بأنه خلق السماوات والأرض بالحق؟ ألسنا نرى الظالم يموت ظالمًا؟ والمظلوم يموت مظلومًا؟ ألسنا نرى المحسن يموت محسنًا؟ والمسيء يموت مسيئًا؟ إذن أين الحق؟ ،ثم فصل آخر، ثم تتمة؛ حتى يرد الحق إلى نصابه، ويجازى الظالم بظلمه، والمظلوم عن مظلمته، والمحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته، النظر يقتضي بأنه لا بد من يوم آخر تعاد الأمور فيها إلى نصابها، وبالجملة فإن من تأمل في الأدلة؛ أيقن يقينًا لا شك فيه أنه لا بد من البعث، فقد تواترت هذه الأدلة النقل والعقل والحس والنظر الصحيح على إثبات البعث وإمكانه، إذن يجب علينا أن نعتني بهذا الجانب، وإن كنا نقرر الآن بأن من أنكر البعث فقد كفر –ولا ريب–، **لكن إيمان المؤمنين بالبعث يتفاوت**:

بعض الناس إيمانه بالبعث إيمان يقظ إيمان حي، كلما هَمَّ أن يُقدم على عمل قام وازع الله في قلبه؛ فقال: احذر أمامك يوم آخر، أمامك بعث ونشور؛ فأحجم وأمسك عن معصية الله.

وبعض الناس يتبلد هذا المعنى في قلبه، وكأنها قصص ومرويات وآثار يسمع بها، وكأنه ليس معنيًا بها فإذا أردت يا عبد الله أن تربي نفسك، وأن تعظ نفسك موعظة حسنة، فالله الله أكثر من ذكر اليوم الآخر والموت، لا بالحد الذي يُفسد عليك عيشك، لا، أنت لا تحتاج من مخافة الله إلا القدر الذي يحجزك عن معصية الله؛ فأقم في قلبك من مخافة الله، ومن الاستعداد لليوم الآخر، ما يحجزك عن معصية الله ويحفزك على طاعة الله، هذا هو القدر الذي تحتاج إليه.

وأرسل الله جميع الرسل

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ.

ذكر الشيخ هذه المسألة المتعلقة بإرسال الرسل، وإن كان أيضًا قد جرى لها ذكر سابق.

قوله: وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ: و البشارة هي الإعلام المقرون بخبر سار، والنذارة هي الاعلام المقرون بخبر مخُوف، هذا الفرق بين البشارة والنذارة، ولا شك أن أنبياء الله تعالى بعثوا مبشرين ومنذرين، مبشرين من أطاع الله تعالى بالجنة، منذرين من عصى الله تعالى بالنار، قال تعالى {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[النساء: ١٦٥]، إذن الحجة الوحيدة التي يمكن أن يحتج بها الآدميون على ربهم عز وجل أن يقول قائلهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ فقطع الله تعالى هذه الحجة ببعثة الرسل، فلا يبقى للناس حجة إذا أرسل الله تعالى الرسل، فالحجة الرسالية لا بد من قيامها، قال ربنا عز وجل: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، فإذا افترضنا أن قومًا أو فردًا لم تقم عليهم الحجة الرسالية، فما حالهم؟ نقول: المحكمات تدل على أن الله تعالى لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة، قد يقول قائل: كم مناطق نائية على نهر الأمازون في أمريكا الجنوبية، وفي مجاهل استراليا، وفي غابات أفريقيا لم يسمعوا بمحمد –صلى الله عليه وسلم– ولا بدين الإسلام، ثَمَّ أقوام ماتوا في الفترة لم يبلغهم رسالة نبي، ما حال المجهول؟ ما حال الطفل الذي مات في صغره؟ ما حال كذا وكذا؟؛ أجاب النبي –صلى الله عليه وسلم– عن هذا الإيراد؛ فقال: (أربعة يحتجون يوم القيامة: شيخ فانٍ مات قبل أن يُبعث الرسول، وصبي مات قبل أن يبلغ الحنث، ومجنون ليس له عقل، ورجل من أهل الفترة، فكل يدلي بحجته، ويقول: يارب كذا وكذا، قال: فيمتحنهم الله تعالى يوم القيامة، ويجعل نارًا ويقول: ادخلوا فيها، فإن هم أطاعوه نجوا، وإن هم أبوا، قال: إياي عصيتم فكيف برسلي؟!).

فنحن نعلم أنه لا يهلك على الله إلا هالك، وأن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، هذا هو المحكم الذي نتمسك به ونعتصم به، ونعلم أن الله تعالى لا يوقع عذابًا بأحد حتى يقيم عليه الحجة الرسالية كما قال هاهنا: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ

عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء: ١٦٥] ، وفي هذا دليل على بطلان الاحتجاج بالقدر بعض الناس يحتج بالقدر، بعض الناس يحتج بالقدر، إذا قيل له: يا فلان لِمَ عصيت الله؟ قال: والله هذا شيء كتبه الله علي، يا فلان لِمَ لَمْ تفعل شيء مما أمرك الله به، قال: ما كتبه الله لو كتبه الله لفعلته؛ فبعض البطالين العطالين يحتج بالقدر على ترك الواجبات وفعل المحرمات، فهل يتم استدلاله بالقدر على مراده، ويُعذر بهذه الحجة؟ لا؛ لأن الله تعالى لم يثبت إلا حجة واحدة يمكن أن يحتج بها الآدميون: {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[النساء: ١٦٥] ، لو كان في القدر حجة؛ لقبل الله حجتهم لكن الله رد حجتهم؛ فأخبر الله تعالى عن هؤلاء المحتجين بالقدر أنهم يقولون: قال تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم}[الأنعام: ١٤٨] فسمى الله دعواهم كذبًا، والكذب هو مخالفة الخبر للواقع، ثم قال: {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } [الأنعام: ١٤٨] ولو كان لهم حجة في القدر ما أذاقهم الله بأسه، ثم قال ثالثًا: { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا } [الأنعام: ١٤٨]، يعني هل اطلعتم على كتابكم وقدركم السابق، وبناءً على اطلاعكم علمتم بأن هذا مكتوب عليكم؛ فسلكتم هذا السبيل؟ لا والله ما اطلعوا على قدرهم مسبقًا، إذن حقيقة الأمر: {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } [الأنعام: ١٤٨]، إذن لا حجة لكم في القدر، إذن هذه هي مهمة الرسل: البشارة والنذارة وقطع الطريق على الاحتجاج على الله عز وجل.

قوله: وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ: والدليل على أولية نوح قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}[النساء: ١٦٣] ، وقال نبينا – صلى الله عليه وسلم– في حديث الصور: (إن الناس يأتون إلى نوح ويقولون له: أنت أول الرسل إلى الأرض)[1]؛ إذن فقد ثبت بهذين النصين أن نوحًا عليه السلام أول نبي وأول رسول، وقد ذكرنا لكم فيما مضى الفرق بين النبي والرسول، وخلاف العلماء في تحديد هذا الفارق، وبهذا يتبين خطأ من زعم أن أول الأنبياء هو إدريس عليه السلام، وهذا يوجد كثيرًا، حتى إن الناس يتداولون بعض المصورات يسمونها شجرة الأنبياء ويكون مرسومًا فيها إدريس بين آدم وبين نوح عليه السلام؛ فهذان النصان يثبتان أن أول الأنبياء وأول المرسلين: هو نوح عليه السلام، وأن إدريس جاء فيما بعد.

والدليل على أن خاتمهم محمد –صلى الله عليه وسلم– لم يذكره الشيخ هاهنا، قال الله عز وجل {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠]؛ إذن آخر الأنبياء هو محمد –صلى الله عليه وسلم– فلا نبي بعده بنص القرآن، وكذلك قال–صلى الله عليه وسلم– في الحديث الصحيح : (سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلاَثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي)[2]، فمن ادعى النبوة بعد نبينا –صلى الله عليه وسلم–؛ فدعواه باطلة، وأدعياء

(١) صحيح مسلم (١٩٤).

(٢) سنن الترمذي (٢٢١٩)، صححه الألباني.

النبي هذا عددهم كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- ثلاثون، وقد وقع إدعاء النبوة في أواخر عهد النبوة، إلى يومنا هذا لم يزل أدعياء النبوة يتواردون؛ فممن ادعى النبوة قبل وفاته -صلى الله عليه وسلم- مسيلمة، وبعد وفاته سجاح والأسود العنسي وطليحة بن خويلد الأسدي، و لم يزل يخرج في مثاني التاريخ من يدعي النبوة كما ادعاها من تنتسب إليه البابية ومن ينتسب إليه البهائيون وكذلك القديانيون في الدول الشرقية، لم يزل يوجد من يدعي النبوة، والمقصود أن يكون ذلك الدَعِّي له أتباع وهيلمان، أما المجانين الذين يدعون النبوة فهؤلاء لا حصر لهم كثر وليسوا في الحسبة المقصود من يدعي النبوة يكون له أتباع وطائفة فهؤلاء كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ثلاثون كذابون، ولا أكذب من هؤلاء؛ فالله قد أكذبهم ونبيه -صلى الله عليه وسلم- قد أكذبهم.

قال: وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولًا: إي والله، أقام الله الحجة على كل أحد، {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤].

قال: وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ::هذه دعوى الأنبياء جميعًا، يقول الله عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }[الأنبياء:٢٥] ، هذا مشروع الأنبياء جميعًا.

قال: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]: لا بد من اقتران هاتين الركيزتين معًا: الأمر بعبادة الله، واجتناب الطاغوت كما قال: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ}[البقرة: ٢٥٦] ، لا يمكن إلا أن يجمع الإنسان بين الأمرين: الكفر بالطاغوت الذي يحصل به التخلية، والإيمان بالله الذي يحصل به التحلية، فلا بد من البراءة من الشرك تمامًا، وهذا هو الموافق للشق الأول من جملتي الشهادة: لا إله، ثم تتمتها بالإيمان بالله عز وجل: إلا الله، فالكفر بالطاغوت والإيمان بالله قضيتان متلازمتان لا انفكاك بينهما، ولا يمكن أن يتصور مؤمن بالله وبالطاغوت في آنٍ واحد، هذان أمران لا يجتمعان، {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: ٤]، لقد كانوا مؤمنين بالله ولكن ما كانوا موحدين بالله، لا بد من الإيمان بالله وحده.

قال: قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ: هذا في الواقع هو أحسن وأجمع تعريف للطاغوت، وأصل الطاغوت لغة: صيغة مبالغة من الطغيان، ومعنى طغى الشيء: أي تجاوز، كما قال الله عز وجل: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة: ١١] ، {لَمَّا طَغَى الْمَاءُ}: أي تجاوز منسوبه المعتاد في قصة الطوفان، {حَمَلْنَاكُمْ}: أي حملنا أسلافكم، {فِي الْجَارِيَةِ}: أي السفينة، فالطغيان معناه التجاوز، ولهذا عرَّفه ابن القيم -رحمه الله- بقوله: **مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ**: كل إنسان له حد، لا يمكن

أن يتجاوز حده، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن صياد قال: (اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ)[1]، فكل إنسان له حد.

قال: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ: المقصود بمن معبود: يعني ممن رضي أو دعا إلى عبادة نفسه، أما لو كان معبودًا بغير رضاه؛ فهو برئ، فعيسى عليه السلام وأمه والعزير برآء، ولا يدخلون تحت هذا الحد؛ لأنهم ما عُبدوا برضاهم، حاشا وكلا، والملائكة أيضًا ما عبدوا برضاهم، إذن من معبود -كما سيفصله لاحقًا- إما: أن يكون دعا لعبادة نفسه أو رضي أن يعبده غيره.

قال: أَوْ مَتْبُوعٍ: يعني يُتبع في غير هدى من الله، كما يحصل من الأحبار والرهبان وعلماء السوء الذين يحلون الحلال ويحرمون الحلال فيتبعوهم، لما دخل الصحابي عدي بن حاتم على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقرأ قول الله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ }[التوبة: ٣١] قال: (يا رسول الله ما عبدوهم، -ظن أن العبادة هي الركوع والسجود- قال: ألم يكونوا يحلون لهم الحرام فيتبعوهم، ويحرمون عليهم الحلال فيتبعوهم قال: بلى، قال: فتلك عبادتهم)، وكذلك علماء السوء الذين يسوغون للناس أو للحكام الحكم بغير ما أنزل الله، وإفساد الدين وتسهيل الشهوات، فكذلك يدخلون في حد المتبوع.

قال: أَوْ مُطَاعٍ: أي من كان له سلطان فأطيع على غير هدى من الله عز وجل، ودعا إلى طاعته في خلاف ما أمر الله؛ فإنه يدخل في حد الطاغوتية، فهذا التعريف الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- يجمع أنواع الطغيان.

والله أعلم.

الكفر بالطواغيت

📖**قال المؤلف -رحمه الله-:**

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرَةٌ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إله إلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ). وَاللهُ أَعْلَمُ.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) صحيح البخاري (١٣٥٤)، مسلم (٢٩٢٤).

أما بعد:

فبعد أن عرَّف الشيخ –رحمه الله– الطاغوت تعريفًا عامًا خص وفصَّل فقال: **وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُة:** الطواغيت: جمع طاغوت، وهم كثر؛ لأنه إذا كان حد الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فالواقع أن هذا الوصف ينطبق على أعيان كثيرين، فهم قال الشيخ: **وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُة:** لكن لهم رءوس، والمقصود بالرءوس الزعماء وذوي الأتباع الكثيرون.

قال: وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُة وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ: إبليس أصل الشر، وهو الذي تقلد إضلال بني آدم، وهو الذي أصابه داء الكبر بسبب هذا الطغيان في نفسه؛ فهوى به إلى أسفل سافلين، ذلك أن إبليس قد بلغ من العبادة ما بلغ به مصاف الملائكة –وإن لم يكن منهم– يقول الله –عز وجل–:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤]. فكان إبليس من الجن كما أخبر الله –عز وجل: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠].

إذن حقيقة إبليس: حقيقة نارية، ليس من الملائكة الذين خلقهم الله تعالى من نور؛ لكنه كان مجتهدًا في العبادة والتقرب فبلغ في سعيه هذا ودأبه أن بلغ مصاف الملائكة؛ لكن خانه أصله الفاسد، فإن الله –سبحانه وتعالى– لما أمر الملائكة الكرام بالسجود لآدم خروا سجدًا؛ لكمال عبوديتهم لله تعالى.

أما إبليس فإنه سرى الكبر في نفسه وقال: {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢]، {أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤] فأبى أن ينصاع لأمر الله –عز وجل– ولحظ المعنى المأمور به، ولم يلحظ الآمر وهو الله –سبحانه وتعالى– فلا شك أن هذا هو أصل الطغيان، ثم إنه تقلد إضلال بني آدم، وقال: {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فكان أن جرت سنة الله تعالى بهذا.

قال: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ: هذا –والله أعلم– على سبيل الخبر، يعني أنه قد وقع اللعن عليه من الله؛ لأن اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى، وقلنا: إن الأغلب أن يكون على سبيل الخبر لا على سبيل الدعاء؛ لأنه قد ورد آثار في النهي أن يقول الإنسان: تَعِس الشيطان. وربما قيس عليها: لعن الله الشيطان. عن أبي المليح عن رجل قال كنت رديف النبي –صلى الله عليه وسلم– فعثرت دابته فقلت تعس الشيطان. فقال صلى الله عليه وسلم: (لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولَ بِقُوَّتِى وَلَكِنْ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ)[1]، يعني أنه ينتشي لهذا الدعاء، وأنه صار في محل ذم الجميع وغير ذلك؛ فلهذا ورد النهي عن ذلك، أما على سبيل الخبر فلا شك أن الأمر كما قال الله:{لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ} [النساء: ١١٨، ١١٩].

---

(١) سنن أبي داود (٤٩٨٤)، صححه الألباني.

إذن إبليس هو رأس الطواغيت، ولم يزل إبليس يسعى في إضلال بني آدم، واعلموا أن أغلى وأعلى ما يطمح إليه الشيطان هو إيقاع العباد في الشرك، في الشرك الأكبر، فهذا غاية مناه؛ لأنه هو الذي يحصل به إلقاء بني آدم معه في قعر النار، فإن لم يتمكن من الشرك الأكبر نقلهم إلى الشرك الأصغر، فإن لم يحصل على ذلك منهم نقلهم إلى الكبائر؛ لأن الكبائر موجبات للوقوع في النار إلا أن يغفر الله، فإن لم ينل منهم الوقوع في الكبائر، وربما نجعل مرتبته قبل الكبائر وهي البدعة، وهي أن يوقعهم في البدعة، لأن البدعة خروج عن سمت الدين وإضافة إلى دين الله ما ليس منه، فإذا لم يظفر منهم بالشرك نقلهم إلى البدعة؛ لأنها باب واسع يفضي إلى أمور أخرى، فإن لم يظفر منهم بالبدعة نقلهم إلى الكبائر، فإن لم يظفر منهم بالكبائر نقلهم إلى الصغائر، فإن لم يظفر منهم بالصغائر نقلهم إلى الوقوع في المكروهات وترك الأولى، بمعنى أن الشيطان لا يزال يفتل في الذِروة والغارب حتى ينال من ابن آدم ما يستطيع، فهو عدو حقيقي، عدو مبين.

ولأجل ذا يجب أن نستشعر عداوة الشيطان لنا، فإن الله –سبحانه وتعالى- يقول: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ} [فاطر: ٦]. لكن ما ثمرة ذلك؟ {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} [فاطر: ٦]. جميع الناس، جميع المؤمنين مقرون أن الشيطان عدو لا تردد عندهم في ذلك، لكن الجملة الثانية: {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} [فاطر: ٦]. أي أن يصوغ الإنسان سلوكه ليعادي الشيطان، هذا قد لا ينتبه له إلا القليل من الناس. وشعورك بعداوة الشيطان لك، وتيقنك من ذلك يجعلك متيقظًا متنبهًا، أنت الآن لو قيل لك: إن فلانًا من الناس يكيد لك ويخطط لك، ويريد أن يوقع بك، ويتحين الفرصة لإيصال الأذية إليك. بالله عليك ماذا تصنع؟ حينما تسير في الطريق تكون منتبهًا، تنظر عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك، وتترقب أن يأتيك أحد من خلفك، مستعد للمواجهة في كل حين؛ لأنك تعلم متيقنًا أن ثَم عدو يتربص بك.

لو كنا نشعر بهذا في خبيئة قلوبنا تجاه الشيطان لكان لنا شأن آخر، لما كان لقمةً سائغةً وفريسةً سهلةً لمكائد الشيطان وأحابيله، لكن لأننا نغفل وننسى أن ثم عدو يتربص بنا، يستجرنا الشيطان ويوقعنا فيما حرم الله تعالى علينا، فانتبه لهذه الآية العظيمة: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} [فاطر: ٦]. هذا هو الطاغوت الأكبر ورأس الطواغيت الخمسة.

قال: وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ: عياذًا بالله، يعني أنه قدمت له صنوف العبادة من الدعاء والاستعانة والاستغاثة والذبح والنذر وهو يرمق ذلك لا يغير ساكنًا ولا ينكر منكرًا، فالراضي كالفاعل، هذا طاغوت، وإن قال: لم آمر بذلك، ولم أحملهم عليه، هم فعلوا ذلك. يقال: وإن كان، رضاك بذلك وعدم نكيرك له يلحقك بالطواغيت، فإنك عبدت وأنت راضٍ، وهذا يحصل لكثير من المتبوعين والمطاعين الذين يتقدم لهم الناس ويعظمونهم ويغرون فيهم، يلحسون أيديهم، يتمسحون بهم، ويطلبون منهم ما لا يُطلب إلا من الله –عز وجل-، يطلبون منهم الغوث والمدد في أمور لا يقدر عليها إلا الله –عز وجل- ويستحسنون ذلك كما يقع لبعض الممدوحين، أحدهم يقول له شاعره:

فَكُن كَما أَنتَ يا مَن لا شَبيهَ لَه أَو كَيفَ شِئتَ فَما خَلقٌ يُدانيكا

والعياذ بالله، فيعجبه ذلك.ويقول أحدهم لآخر:

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكُمْ فأنتَ الواحد القهّارُ

عياذًا بالله، ويعجبه ذلك، فهذا من صدر منه أو من وقع ورضي به فإنه من الطواغيت.

قال: وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ: من دعا إلى عبادة نفسه أشد ممن عبد وهو راض؛ لأنه حمل الناس وندبهم إلى أن يعبدوه من دون الله –عز وجل–، ومن هؤلاء فرعون الذي تباهى واستخف فقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، وقال: {قَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]. فحملهم على عبادته من دون الله –عز وجل– فهذا –والعياذ بالله– أيضًا من رءوس الطواغيت، من دعا الناس إلى عبادة نفسه.

قال: وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ: أيضًا من ادعى علم الغيب، وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله –سبحانه وتعالى– فإنه على اسمه: غيب، فالكهان والسحرة والمنجمون والمتنبئون الكذابون ومن على شاكلته، هؤلاء جميعًا طواغيت؛ لأنهم يدَّعون علم الغيب، فيزعمون أنهم يخبرون بالأمور الغائبة والأمور المستقبلة؛ فهؤلاء طواغيت وكفرة بفعلهم هذا، وقد قال الله –عز وجل–: { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النمل: ٦٥]. إذن من ادعى علم الغيب بأي صورة من الصور؛ فإنه طاغوت.

وأما إن اطلع على بعض الأمور المعلومة لكن بطرق معقولة، فهذا لا يدخل في ذلك، كما يجري عن طريق الاتصالات السريعة وغير ذلك، فهذا ليس من ادعاء علم الغيب، بل من ادعاء علم الشهادة، لكن علم الغيب الذي لا يكون إلا مستقبَلًا أو أمور لا يمكن إدراكها، فهذا يعد إما كاهنًا وإما ساحرًا وإما منجمًا. وقد كثروا –لا كثرهم الله– واستغلوا ضعف الناس، وصاروا يحلبون أموالهم بغير حق، بدعوى أنهم يخبرونهم بالمغيبات.

ومن شواهد ذلك في العصر الأخير: ما يسمى بالمطالع والنجوم أو علم الأبراج إن صح أن نسميه، ولا يصح أن يسمى علمًا، لكنه شاع وفشى في بعض المجلات التافهة، ما يسمى بالأبراج، يقولون: إذا كنت أنت من برج الحمل أو من برج الأسد أو من برج كذا وكذا، سيقع لك كذا وكذا حادث سعيد. هذا رجم بالغيب، يجب أن يحارب وأن ينبذ وأن يحذر منه.

وكذلك ما يدَّعيه بعض الناس من قراءة الكف، يأخذ كف الإنسان ويرمق الخطوط التي به ويقول: هذا الخط يدل على كذا، وهذا الخط يدل على كذا. هذا زور وبهتان وأكل لأموال الناس بالباطل، وبعضهم يدعي القراءة في الفنجان.

وهكذا أصحاب العقول الضعيفة، وأصحاب العقائد الرقيقة، تنطلي عليهم مثل هذه الأمور ويصدقونها، ويجب على أهل العقيدة والإيمان أن يقفوا سدًا منيعًا وأن يقمعوا هؤلاء المفسدين والسحرة؛ حتى إنهم اتخذوا في الآونة الأخيرة

قنوات للسحر، يتصل بهم المتصلون ويذكرون لهم بعض الأشياء؛ فيخبرونهم ويهرفون بما لا يعرفون ويخبرونهم بما سيقع لهم مستقبلًا. فهذه أيضًا مما يجب التحذير منها ومحاربتها، والحيلولة بينها وبين الناس.

قال:(وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ): أيضًا هذا من الطواغيت، وقد أنزل الله تعالى في سورة المائدة آيات محكمات في تعظيم هذا الأمر وتشنيعه، فقال الله –سبحانه وتعالى-: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤]،{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: ٤٥]،{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة: ٤٧]، في آيات متواليات.

وقال بعد ذلك: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} [المائدة: ٤٨].

وقال: {وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: ٤٩]، ثم قال بعد ذلك: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠].

فجاءت هذه الآيات العظيمات في سورة المائدة في تكفير من حكم بغير ما أنزل الله، والتشنيع عليه، ووجوب التزام الشريعة التي أنزلها الله، والتحذير من الاستذلال والافتتان والتخلي عن بعض ما أنزل الله تعالى؛ وبيان أن ما تم إلا حكم الله وحكم الجاهلية، ولا سواء، ولا مقارنة بين الأمرين:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠].

كما أن الله –سبحانه وتعالى- نفى الإيمان عمن استغنى عن حكمه بحكم غيره، فذكر الله –سبحانه وتعالى- طائفةً من المنافقين، قال عنهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء:٦٠-٦٣]، إلى أن قال الله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ}. انظر إلى هذا القسم: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: ٦٥].

إذن -أيها الإخوان- ألا ترون وضوح هذه المسألة، ووضوح هذه القضية، وهي وجوب الحكم بما أنزل الله –عز وجل- لأن الله تعالى ما أنزل هذه الشريعة لكي تكون مادةً تحفظ في الكتب وتصف على الرفوف، وإنما أنزل الله هذه الشريعة لتحتكم إليها البشرية؛ فتصلح بها أحوالهم وتستقيم أمورهم وترد المظالم بسببها وتقام الحدود ببركتها ويندفع الشر.

فلا شك أن مَنْ نحى هذه الشريعة واستبدلها بقوانين وضعية أنه طاغوت من الطواغيت الخمسة الذين عدهم الشيخ –رحمه الله– **وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ.**

لكن الحكم بغير ما أنزل الله من حيث هو، لا شك أن الله قد سماه كفرًا، وفسقًا، وظلمًا، وهذا لا يختلف عليه اثنان ممن يقرؤون القرآن، ولكن هل هذا الكفر كفر أكبر أم كفر أصغر؟ وهل ذلك الفسق فسق أكبر أم فسق أصغر؟ وهل ذلك الظلم ظلم أكبر أو ظلم أصغر؟ لأن الأكبر من هذه الثلاثة مخرج عن الملة، والأصغر لا يبلغ الخروج عن الملة.

قد اختلف المفسرون في هذا الأمر، هل يكون ذلك مخرجًا عن الملة أم لا يبلغ أن يكون مخرجًا عن الملة، **والصحيح في هذا هو التفصيل**، فإنه يفرَّق بين أن يحكم حاكم بغير ما أنزل الله في قضية عين، تحمله عليها رغبةً أو رهبةً، وبين أن يقنن قانونًا ويُسن نظامًا ويحمل عليه الكافر، فالذي يحكم في قضية عين بغير ما أنزل الله رغبةً أو رهبةً؛ فقد أتى كبيرةً لا تبلغ به مبلغ الكفر.

مثال ذلك:

- احتكم رجلان إلى حاكم شرعي، فحكم للجاني على المجني عليه محاباةً له؛ لأنه من جماعته وأصحابه، إذن هو قد حكم بغير ما أنزل الله لكن في قضية معينة، فهذا لا يبلغ مبلغ الكفر، لكنه أتى كبيرةً –ولا ريب–.
- أو حكم للظالم على حساب المظلوم رهبةً من الظالم وخوفًا منه، فهذا قد حكم في قضية عين بغير ما أنزل الله فحكمه –وإن سميناه كفرًا– فإنه لا يكون كفرًا أكبر مخرجًا عن الملة.

كما قال ابن عباس في رده على الخوارج: "ليس الذي يذهبون إليه –يعني الكفر المخرج عن الملة– كفر دون كفر".

❖ أما إذا شرعَّ الإنسان شرعًا للناس واستعاض به عن شرع الله المنزل، وحملهم عليه، ودعاهم إليه، وزهدهم في شرع الله –عز وجل– فهذا لا ريب أنه ينبئ عن كفر أكبر، قال الله –عز وجل–: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى: ٢١]. فسماهم الله تعالى شركاء، فكأن هذا منازعة لله –عز وجل– في حق من حقوقه المتعلق بربوبيته وألوهيته أيضًا، فإن من ربوبيته الأمر: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤]. فهو الآمر سبحانه، لا يجوز أن ينازع سبحانه في هذا الأمر، وطاعته من هذا الجانب: من التعبد إليه ومن حقوق ألوهيته، فمن أجل ذا كان الحكم بغير ما أنزل الله يتعلق به توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية.

✓ **فهذا هو القول الفصل في هذه المسألة**: وهو أن يقال: أن من حكم في قضية عين رغبةً أو رهبةً لم يخرج بذلك عن حد الإيمان، ولم ينتقل إلى الكفر، ولكنه أتى كبيرةً ولا ريب، ويوصف عمله بأنه كفر وفسق وظلم لكنه أصغر، أما من سن قوانين وحمل الكافة عليها ودعا إليها واستعاض بها عن شرع الله –عز وجل– فإن هذا يلحقه بالكفر الأكبر؛ لأنه ما كان ليصنع ذلك إلا لاعتقاده بأن هذه القوانين أفضل وخير من حكم الله –عز وجل– ومما أنزل الله تعالى، أو على الأقل أنها مساوية، وكلا الحالين تعتبر مخرجةً عن الملة.

وقد ذكر ابن كثير –رحمه الله تعالى– في تاريخه: أن هولاكو الذي غزا البلاد الإسلامية من جهة المشرق، اتخذ لقومه قانونًا وضعه أبوه جنكيز خان يقال له: الياسق. جمع فيه أحكامًا من مختلف الملل والنحل والشرائع، ومنها شريعة الإسلام، وحمل الناس عليها، وعد ذلك –رحمه الله– من الكفر؛ فلأجل ذا لا يجوز لأهل الإسلام أن يستعيضوا بهذه القوانين الوضعية عن شريعة الإسلام، بل الواجب على أهل الإسلام أن يتمسكوا بالشريعة الإسلامية وأن يقدموها، وألا يخبئوا شيئًا منها أو يستحوا منه، فإنما أنزل الله تعالى في كتابه من الأحكام والحدود هو غاية المصلحة لكل زمان ولكل مكان ولكل جيل وقبيل.

ويجب علينا ألا نخفي شيئًا منها أو أن نعتذر عن شيء منها، فإن بعض الذين خالطوا الغرب، وتأثروا بثقافتهم صاروا يستحون من أن تتضمن شريعتنا قطع يد السارق، ورجم الزاني المحصن وجلده، ويعتبرون أن ذلك منافٍ لحقوق الإنسان ونحو ذلك من الأمور، كثير منهم الآن يتلجلج ويجمجم ويغمغم عند ذكر حد الردة، ويقال: كيف هذا يتنافى مع حرية إبداء الرأي، ويتنافى مع كذا وكذا. يا سبحان الله!:{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠].

الآن الدول المختلفة تسن قوانين من قوانين الإعدام فيما يسمونه بالخيانة العظمى لو ارتكب أحد أفرادها شيئًا مخلًا بالأمن العام والمصلحة القومية لقومهم، ويرونه مستحقًا للإعدام، فكيف يستعظمون أن يكون المرتد عن دينه الذي أتى أكبر خيانة غير مستحق لحد الردة!.

قد يقول قائل: لا تتمكن دولة ما أو نظام ما من تطبيق الحد. هذا شيء، لكن أن يقال: هذا ليس في دين الله حد الردة، ليس في دين الله حكم الرجم، هذا شيء آخر، فلا يجوز جحد ما أنزل الله فلي كتابه، ورده لمجرد ظنون وأوهام أو مصالح مزعومة أو مصالح ملغية، فعلينا أهل الإسلام أن نعتز بديننا وشريعتنا، ونعلم أن ما أنزل الله تعالى هو الحق والمصلحة، وأن به تندفع الشرور، فحد يقام في الأرض خير من أن تُمطَر أربعين صباحًا، كما جاء ذلك في بعض الأحاديث.

وانظروا واعتبروا بحمد الله في هذه البلاد – في المملكة العربية السعودية– حيث تقام الحدود ويحكم بشرع الله –عز وجل– في المحاكم الشرعية، كيف أن الله تعالى كف شرورًا عظيمة ببركة تطبيق الشريعة الإسلامية.

لكن الدول الغازية لبلاد المسلمين –بعد انفراط نظام الخلافة العثمانية– استغلت ضعف المسلمين وأحلت هذه القوانين الوضعية: القانون الفرنسي، القانون الإنجليزي، القانون الألماني إلى غيره في الممالك الإسلامية المختلفة؛ وضيقت الخناق على الشريعة الإسلامية، فلا يكاد يحكم بالشريعة الإسلامية إلا فيما يسمونه بالأحوال الشخصية: في مسائل الطلاق والنكاح وربما إلى حد يسير فيما يتعلق بالمواريث، وأما بقية الأحكام المتعلقة بالأمور المالية والجنائية والحدود فنحيت جانبًا وهُجِرت، وهذا أمر عظيم يجب على المسلمين أن يراجعوا أنفسهم، ويعودوا إلى دينهم، ونسأل الله تعالى أن يثبت القائمين على الحكم بما أنزل الله وأن يمسكوا بالكتاب.

لا أكره في الدين

قال: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ:

أي لا مُحوِج للإكراه في الدين، وقد تبين الرشد من الغي، لماذا لا إكراه في الدين؟ لأن الدين ظاهر بين، أدلته ساطعة، وبراهينه ناصعة، فلا إكراه في الدين.

قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ: والغي هو الضلال، قد تبين الرشد من الغي، فكأن هذه الجملة جملةً تعليليةً لبيان عدم الإكراه في الدين، فكل عاقل استبان له الحق والرشد؛ فإنه يتجه إليه غير مكره، بل مختارًا، وليس معنى ذلك: أن لا إكراه في الدين أن يخلى كل أحد ولا يدعى إلى الإسلام، وكما يدعي العصرانيون بالحرية الفكرية وأن لكل أحد أن ينشر كنانته وينشر غيه وفساده، لا، بل الواجب على من بسط الله تعالى يده أن يقيم الملة المعوجة، وأن ينشر الحق الذي أنزله الله تعالى، وأن يمنع الباطل وألا يمكن لأهل البدع والفساد والغي من أن يفسدوا المجتمعات.

لكن أهل الإسلام يدعون إلى دين الله – عز وجل- فإن كان لهم شوكة وسلطان دعوهم إلى الإسلام، فإن اعتنقوه فذاك، وإن أبوا عرضوا عليهم الجزية، فإن بذلوها عن يد وهم صاغرون خُلي بينهم وبين ما يعتقدون غير أنهم لا يظهرون شيئًا ينافي أمور الإسلام العامة، فإن أبوا فالسيف؛ هكذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يصنع مع أعدائه ومخالفيه.

وهذا الأمر يرتبط بحال أهل الإسلام قوةً وضعفًا، فإنهم يكونون في بعض الأحوال ممكنين وعندهم عون وشوكة وقوة، وفي بعض الأحيان يلحقهم ضعف فلا يتمكنون من تطبيق ذلك؛ **ولهذا كان القول الراجح: أن الآيات النازلة في أمر الجهاد آيات مرحلية، تنزل كل آية على الحال التي يناسبها:**

- فالمؤمنون قيل لهم في مكة: {قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [النساء: ٧٧]. لأنهم كانوا مستضعفين، لا يستطيعون أن يواجهوا عدوهم.
- ولما قال العباس بن عبادة بن نضلة رضي الله عنه للنبي –صلى الله عليه وسلم: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: (لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ)[1].
- ثم لما كان لهم نوع منعة في المدينة أُذِن له بقتال من يقاتلونهم، ثم لما مكنهم الله –عز وجل- نزلت آية السيف: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة: ٥].

إذن ينبغي أن نلحظ هذا المعنى، ولا يصح لإنسان أن يُعْمِل آيةً في غير موضعها، وأن يقوم بأعمال حمقاء أو تصرفات غير مدروسة، ويفسد على أهل الإسلام أمرهم أو يجرهم إلى أمور تعود عليهم بالضرر، هذه الأمور العامة من شأن

(١) مسند أحمد (١٥٧٩٨) حسن إسناده شعيب الأرنؤوط في المسند.

ولاة الأمور وأهل الحَل والعقد، ولا يصح في الأمور العامة أن ينفرد كل أحد برأيه ويفعل ما زينه له عقله، لا بد من الرجوع في الأمور العامة إلى أهل الحَل والعقد من الأمراء والعلماء؛ حتى تكون كلمة المسلمين واحدةً وتصدر عن قرار واحد.

قال تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]:وهذا معنى: لا إله إلا الله، إذن لا بد من اجتماع الأمرين: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فهما ركنا أساسيان، لا بد من اجتماعهما كما ذكرنا ذلك مرارًا، الكفر بالطاغوت والإيمان بالله لا انفكاك لأحدهما عن الآخر، والعروة الوثقى: هي لا إله إلا الله، فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومعنى الوثقى التي لا تنفصل، كما قال سبحانه: ﴿ **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ **[البقرة: ٢٥٦]**، فالعروة الوثقى هي كلمة التوحيد، ومن استمسك بالعروة الوثقى فقد أمن وسَلِم وبلغ ما ينشده في الدنيا والآخرة.

قال: وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ):هذا في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ: طبعًا، والمراد بالإسلام هنا الذي هو بمعنى التوحيد، أي الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، فهذا هو رأس الأمر.

وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ: لأن الصلاة أعظم شرائع الدين العملية، فهي بمنزلة العمود للخيمة، وهذا يدلنا على أن الصلاة لها ميزة وخاصية ليست في بقية الشرائع العملية، وأي شيء سقط عموده فقد سقط؛ فلهذا فلقد كان القول الراجح من أقول أهل العلم أن تارك الصلاة -ولو تهاونًا وكسلًا- كافر كفرًا مخرجًا عن الملة، وحسبك بهذا الوصف أن الصلاة هي عمود الدين، فمن لا عمود لدينه لم يكن له دين، كما أنه من لا عمود لخيمته وفسطاطه سقطت خيمته وفسطاطه. ولأدلة أخرى لا تخفى.

وأمر الصلاة عظيم جدًا، ويجب أن نعظمه في النفوس، فإن من دَهْمَاء المسلمين من لا يرفع رأسًا بالصلاة، ولا يرى بتركها بأسًا، والحقيقة أن هذه الشعيرة هي الصلة الحقيقية بين العبد وربه، أرأيتم كما مر بنا في حديث المعراج كيف أن الله شرعها أول ما شرعها خمسين صلاةً في اليوم والليلة، هذا يدلكم على عظمها، ثم آل الأمر إلى خمس، فهي خمس في الفعل خمسون في الميزان.

فلما علم الله من حال عباده أنه تكتنفهم الغفلات والشهوات والشبهات جعل لهم هذه المحطات الخمس في اليوم والليلة؛ لكي ينصع القلب، وقد صورها النبي -صلى الله عليه وسلم- بتصوير جميل، فقال: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ). قَالُوا لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: (فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا)[1].

(١) صحيح البخاري(٥٢٨)، صحيح مسلم (٦٦٧).

فلو كان أحدنا ينغمس يوميًا في مجرى نهر أو بركة خمس مرات لكان نظيفًا ناصعًا، لا يبقى على بدنه وبشرته درن، فهذه الصلوات الخمس –كذلك– تنقي القلب وتطهره من الأوشاب والأخلاط التي تنشأ عن مجريات الحياة اليومية.

لكن مع ذلك الناس يتفاوتون، فمن الناس من يؤدي هذا الصلوات جري العادة، فلا يحصل له الانتفاع التام، أما إذا أقبل الإنسان بكليته على هذه الصلاة العظيمة، وصَّف قدميه في محرابه، وصوب بصره إلى موضع سجوده، ويضع يده اليمنى على اليسرى بين يدي ربه، واستشعر قيامه بين يدي الله وعبوديته لله رب العالمين، قال مكبرًا: الله أكبر. فألقى الدنيا خلف ظهره، واستشعر مثوله بين يدي الله، وأخذ يناجي، أخذ يتأمل فيما يقرأ، وفيما يذكُر، وجد في هذه المعاني، في هذه الألفاظ ساحًا فِساحًا يُبحر فيها في عبودية الرب –سبحانه وتعالى–، ثم إذا تأمل في هيئات الصلاة: في ركوعه وسجود وقيامه وانحطاطه؛ لوجد من معاني التوحيد والخضوع ما يحصل به حياة القلب، ما معنى أن تركع؟ هذا خضوع لله –عز وجل–، ما معنى أن تضع أشرف ما فيك في الأرض التي تطؤها بقدميك؟ إعظامًا وإجلالًا للرب –سبحانه وتعالى–، لو أنَّا تأملنا في هذه المعاني وهذه الأقوال والأذكار والأدعية والحالات؛ لحققنا الخشوع في الصلاة الذي شعر به الصالحون.

إن من أخص أوصاف المؤمنين الخشوع في الصلاة، قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [المؤمنون: ١]، من هم؟ {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون: ٢]. فإذا أردت أن ترى موقعك من الإعراب، إذا أردت أن تعين مقامك فعلًا في سلم الإيمان؛ فانظر حالك مع الصلاة، هل أنت إذا دخلت في صلاتك استجمعت همك، وخشع قلبك، ورأيت أنك في حال اتصال مع الله –عز وجل–؛ لأن الصلاة صلة، أما أنك إذا دخلت في الصلاة انفتحت عندك جميع الملفات الدنيوية، وصرت تذهب يمنةً ويسرة في أودية الدنيا، فلا تشعر إلا والإمام يقول: السلام عليكم ورحمة الله، ما هذه الصلاة؟! علينا أن نحسن صلاتنا، أن نضبط صلاتنا، فإنها إن صلحت؛ صلح جميع حالنا.

وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ: ذروة الشيء أعلاه، ذروة سنام الإسلام الجهاد، إي والله، قال: **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ:** لأن المقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا، فعَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[1].

واعلموا أن الجهاد باق في هذه الأمة إلى يوم القيامة: (لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[2] ، فالقتال في هذه الأمة ومجاهدة الأعداء باق إلى يوم القيامة، لا يمكن أن يُطمس ولا أن يذهب؛ فقد قال نبينا –صلى الله عليه وسلم–: (وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي)[3]، وأحاديث الفتن والملاحم التي تقع في آخر الزمان

(١) صحيح البخاري (١٢٣)، صحيح مسلم (١٩٠٤) واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري (٧٣١١)، صحيح مسلم(١٥٦) واللفظ له.

(٣) المسند (٥١٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣٢).

دالة دلالةً أكيدةً على استمرار هذه الشعيرة، لكنها شعيرة مرتبطة بالحال العام للأمة، والذي يحكمها إعلانًا أو إيقافًا أو تأجيلًا هي السياسة الشرعية، لا يجوز لأحد -كائنًا من كان- أن يشطب على الجهاد، الجهاد باق، لا يختلف اثنان من المسلمين على أن الجهاد شعيرة باقية إلى يوم الدين إلى آخر هذه الأمة.

لكن اعتبار حال معينة جهاد أو غير جهاد، هذا يُحتاج فيه إلى باب السياسة الشرعية، وتقدير أهل العلم والإيمان بحيث يُرى هل هذا من باب الجهاد أم لا، وهل الأصلح فيه الجهاد أم المصالحة؟، فإنه كما تعلمون قد وقع لنبينا - صلى الله عليه وسلم- أحوال متعددة، فباب السياسة الشرعية غير باب الثوابت العقدية، فمن الثوابت العقدية شعيرة الجهاد، أما السياسة الشرعية فتختلف باختلاف الأحوال.

وأضرب لكم مثالًا: حينما تحزبت الأحزاب على المسلمين في المدينة، عشرة آلاف مقاتل من غطفان وقريش وسائر العرب أتوا ليستأصلوا شأفة الإسلام، ماذا صنع النبي -صلى الله عليه وسلم-: جمع أصحابه وشاورهم، وقال: (إن رأيتم أن نصالحهم على نصف تمر المدينة ويرجعوا عنا)، خطوة اجتهادية يتخذها ولي الأمر؛ لدفع الشر عن المسلمين، هذا يدخل في باب السياسة الشرعية، لا يُعد هذا نكوصًا ولا جبنًا ولا إخلالًا بالعقيدة.

فقال له الأنصار الكرام -رضي الله عنهم-: قالوا: (يا رسول الله، شيء أمرك الله به لا ننازع فيه، أم هو الرأي والمشورة أو هو شيء تصنعه لنا؟)، قال: (بل هو شيء أصنعه لكم لعل الله أن يدفع عنكم، قالوا: يا رسول الله، والله ما كانوا يطمعون في تمرة واحدة في جاهلية، فكيف نعطيهم بعد أن أعزنا الله بالإسلام)، فقال: (أنتم وشأنكم). لما رأى استعدادهم وشجاعتهم وتحملهم لهذا الأمر المقبل خلى بينهم وبين هذا الأمر.

فلا حرج أن يقع في بعض الأحوال من ولي الأمر نوع مصالحة؛ لدفع شر متوقع أو نحو ذلك، فهذا باب واسع لا نضيق به ذرعًا.

وهذا صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- الذي له قدم صدق مُعَلَّى في الجهاد في سبيل وطرد الصليبيين، اُضطر في موقف من المواقف إلى أن يُبرم صلحًا مع الصليبيين؛ ليدفع شرهم، وبقيت عكا في أيديهم حتى مكثوا فيها نحو مائتي سنة، يعني مكث النصارى في عكا من بداية الحروب الصليبية إلى نهايتها نحو مائتي سنة، وعقد معهم صلح الرملة؛ لدفع شر يقع عليها.

إذن فذروة سنام الإسلام هو الجهاد في سبيل الله، لما فيه من إعزاز الدين، وإعلاء كلمته، ونشره في الخافقين، وما يترتب عليه من المصالح العظيمة في إدخال الناس في دين الله أفواجًا، حتى جاء وصفهم في الحديث أنهم يُدخلون الجنة في السلاسل.

قال: وَاللهُ أَعْلَمُ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: ختم الشيخ -رحمه الله- برد العلم إلى الله -عز وجل- ولا شك أن الله تعالى أعلم، ونبيه -صلى الله عليه وسلم- أعلم أيضًا في الأمور الشرعية.

فيقول الإنسان هذه الكلمة- الله أعلم- في الأمور الكونية والشرعية، وله أن يقول: الله ورسوله أعلم في الأمور الشرعية فقط، لكن لا يقول: الله ورسوله أعلم في الأمور القدرية الكونية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم من الأمور الكونية القدرية إلا ما أعلمه الله، فإذا قال لك صاحبك مثلًا: هل قدم فلان من السفر؟ لا يستقيم أن تقول: الله ورسوله أعلم؛ لأن هذا أمر يعلمه الله -سبحانه وتعالى- لا يعلمه نبيه -صلى الله عليه وسلم- فيفرَّق بين مقامين: بين أن يكون متعلقًا بالأمور الشرعية، وبين أن يكون متعلقًا بالأمور الكونية، وختم بالصلاة على نبيه -صلى الله عليه وسلم-، والصلاة من الله على نبيه أحسن ما قيل فيها: ما ذكره أبو العالية -رحمه الله- فيما رواه عنه الإمام البخاري: "أي صَلَاةُ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ"(١).

والآل والأصحاب اصطلاحان: فالآل يطلق على الأتباع على الدين، فإذا قيل: آل محمد: فهم أتباعه على دينه إلى يوم القيامة، كما قال الإمام أحمد(٢).

أما إذا قُرن الآل بالأصحاب فإن الآل ينصرف إلى المؤمنين من آل بيته؛ لأن آل الرجل وآل البيت: هم القرابة، وهم خمسة بطون من قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا شك أن لقرابة النبي - صلى الله عليه وسلم- منزلة وخاصية، فكما قال -صلى الله عليه وسلم-: (إلا أن تودوني في أهل بيتي). {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: ٢٣] على أحد التفسيرين، لما ذكر له العباس أن بعض قريش يجفو بني هاشم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (والله لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي)، فنحن نتقرب إلى الله -عز وجل- بمحبة قرابة نبيه -صلى الله عليه وسلم- وهذه البيوت هم: آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وآل الحارث بن عبد المطلب، الذين تحرم عليهم الصدقة. فنحب آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- ونتقرب إلى الله -عز وجل- بمودتهم ونصرتهم.

أما صحبه: فهي جمع صاحب أو جمع صحابي، وتعريف الصحابي: من اجتمع بالنبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمنًا به ومات على ذلك، وبعضهم قال: من اجتمع بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في حياته مؤمنًا به ومات على ذلك. من اجتمع بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أو من لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- خير من أن نعبر: من رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- لأن الصاحب ربما كان أعمى لا يرى؛ فلذلك كان التعبير الأجمع أن يقال: من اجتمع أو من لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمنًا به(٣).

إذن لا بد أن تكون هذه اللقيا وهذا الاجتماع حال الإيمان، فلو أن الصحابي لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- حال كفره ثم فارقه و لم يلقه بعد ذلك، ودخل في الإسلام، فلا يكون صحابيًا؛ لأنه لم تحصل اللقيا حال الإسلام، وقد وقع

(١) صحيح البخاري {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} [الأحزاب: ٥٦]. (١٠/١٢)دار طوق النجاة.

(٢) انظر: جلاء الأفهام (٢٧٥).

(٣)الإصابة في تمييز الصحابة (٨/١-٩).

ذلك لكثيرين، لقوا النبي –صلى الله عليه وسلم- في الموسم أيام كان يعرض نفسه على القبائل؛ فلم يستجيبوا لدعوته، و لم يدخلوا في الإسلام إلا بعد موته، فلا يدخل هؤلاء في عداد الصحابة، إذن لا بد أن يلقاه مؤمنًا به في حياته، وفائدة هذا القيد: أنه لو لقيه بعد موته؛ فإنه لا يكون صحابيًا، وهذا قد لا ينطبق إلا على رجل واحد، قدم مهاجرًا للمدينة في اليوم الذي مات فيه النبي –صلى الله عليه وسلم- ورآه مُسَجَّى[1]، رآه بعد موته، فلا يكون ذلك قد أردك درجة الصحبة.

ومات على ذلك: إذن لا بد أن يموت الإيمان، فلو مات -العياذ بالله- على ردة زال عنه وصف الصحبة.

لكن ما تقولون فيمن تخلل صحبته ردة ثم عاد إلى الإسلام، هل يزول عنه وصف الصحبة أم يبقى؟ القول الصحيح أنه يبقى له وصف الصحبة، وهذا ينطبق على كثيرين ممن وقعت منهم الردة: كطليحة بن خويلد الأسدي، فإن الله مَنَّ عليه ورجع.

قال: وَسَلَّمَ: هذا دعاء للنبي –صلى الله عليه وسلم- بالسلامة، أما الدعاء له بالسلامة في حياته فظاهر: وهو أن يعصمه الله من الناس فلا يصلون إليه بأذى، وأما الدعاء له –صلى الله عليه وسلم- بالسلامة بعد موته: فهو دعاء لدينه أن يسلمه الله من البدع والإضافة والتغيير؛ ولهذا أمرنا الله تعالى بذلك فقال: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبذلك تمت هذه الرسالة المباركة، وأدعوكم -يرعاكم الله- إلى مراجعتها وحفظها.

والله أعلم.

([1]) أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور واسمه خويلد بن خالد أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره، وقدم المدينة يوم وفاته، فشهد السقيفة، وبيعة أبي بكر، والصلاة على النبي ﷺ ودفنه، قال ابن كثير: توفي غازيا بإفريقية في خلافة عثمان رضي الله عنه.انظر تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٣٥٨/٣)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة(٢٤٥/١)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١٤٥/١).